طاهر أبو فاشا

العشق الإلهي

الله



تصدر أول كل شهر
[٥١٢] - يوليو - ١٩٨٥

رئيس التحرير صلاح منتصر

طاهر أبو فاشا

العشق الإلهي



دار المعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

« إذا وصلت إلى الحقيقة عن طريق عقلك .
فأنت فيلسوف . أو متفلسف .
وإذا وصلت إلى الحقيقة عن طريق قلبك .
فأنت صوفي . أو متصوف »

« ط . أ »

أشواقٌ وأذواقٌ ..

كنا ثلاثة نتحلّق حول المائدة الثقافية التى يعدُّها التليفزيون العربى فى أمسيات الأربعاءات : الدكتور كمال جعفر أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة . والأستاذ فاروق شوشة . وكاتب هذه السطور .

أما الموضوع الذى وضع أمامنا على مائدة الحوار فهو « العشق الإلهى » .

والعشق الإلهى مقام من مقامات التصوف العليا لايصل إليه السالكون إلا بعد أن يجتازوا طريقًا طويلاً من المجاهدة النفسية ، والرياضة الروحية . ويتعرضوا لهزات عنيفة فى متاهات الوجود والشهود .

ومن هذا المقام تسلّل إلى أفكار أئمة المتصوفة بعض الشبهات . فكانوا هدفًا لسهام أهل الظاهر عندما احتدم الصراع بين الفقهاء والمتكلمين من ناحية . وهؤلاء المتصوفة من ناحية أخرى .

واقتضانى هذا أن أعود إلى الغوص فى هذا البحر العميق

لألتمس تأصيلاً لفكرة العشق الإلهى : حقيقته ، ومراتبه ، وظواهره ، وأعراضه .

وانقطعت لذلك أيامًا خرجت منها موقرا بزاد من شراب القوم حملته معى إلى تلك الندوة الثقافية .

* * *

ولكن الأستاذ فاروق كان يقود الندوة . ويوجهها فى الخط الذى حدَّده ورسمه . فكانت أسئلته بمثابة حدود ليس لنا أن نتجاوزها ، أو نخرج عنها ، فلم يتسع المجال أمامى للشطح فى أودية الأذواق والأشواق التى يخوضها العشاق وأصحاب المواجيد من أهل الباطن .. وخرجت من الندوة ومازال فى الرَّاووق أقباس لم يتسع لها وقت الندوة ولعلى أن أجد متسعًا لشىء منها فى هذه السطور إن شاء الله .

على الطَّريق

ومن المعروف أن بواكير النزعة الصوفية قد ظهرت فى مطالع الإسلام قبل بعثته عليه الصلاة والسلام . بتحنثه فى غار حراء . وفيما كان يأخذ به نفسه - بعد البعثة - من العبادة والزهادة .

وقد انتقلت هذه النزعة إلى الصحابة ، ومن الصحابة انتقلت إلى التابعين ، ومن هؤلاء إلى تابع التابعين .

ولكن هذه النزعة لم تأخذ وضعها كمنهج للحياة الروحية فى الإسلام إلا فى أواخر القرن الثانى للهجرة .

فقد هبّت على العالم الإسلامى - منذ أواخر هذا القرن - نسمات لطيفة تحمل طيوب المجاهدات النفسية . والرياضات الروحية الصوفية .

لماذا ؟ وكيف ؟

ذلك أن الفتوحات العربية كانت قد بلغت مدى بعيدًا وحملت إلى البلاد العربية الأموال والخيرات من كل مكان . وأخذت الثقافات الأجنبية تطرق أبواب الفكر العربي . وجعلت الحضارة

العربية تزدهر . وارتقت وتنوعت وسائل العيش ، واستبحر العمران . وخرج العرب من بداوتهم ، وزايلتهم خشونتهم . وداخل الترف حياتهم . وركنوا إلى زخرف الحياة الدنيا ، وانعكست على صفحة حياتهم أعراض الترف ، واللهو . والعبث . وجميع السلبيات التى تصيب المجتمعات الغنية المترفة .

وكردّ فعل لذلك ظهر تيار ينزع إلى الزهد ، ومجاهدة النفس ، والانقطاع للتأمل والعبادة . ثم أصبح ذلك منهجًا يميز السالكين طريق الله فى دروب الرياضة الروحية ، والمجاهدة النفسية .

* * *

وفى القرن الثالث الهجرى عندما اتسع اتصال العرب بغيرهم ، وامتدت جسور الثقافات . وتلاقحت الحضارات - عندئذ داخلت التصوف الإسلامى عناصر كلامية ، وأخرى فلسفية . وانشعبت مشارع الشريعة ، فأصبح هناك « علم الظاهر » ويختص به الفقهاء والمتكلمون . كما أصبح هناك « علم الباطن » ويختص به الصوفيون » .

وتحددت معانى الصوفية بأفكارها ورموزها ومصطلحاتها . وظهرت كلمة « التصوُّف » واشتقُّوا منها فعلًا . فقالوا : « تصوف » إذا سلك طريق الزهادة . وضرب فى طريق الرياضة الروحية .

ثم وقع الخلاف فى اشتقاق الكلمة ونسبتها . فنظروا إلى مفهوم

كلمة « التصوف » وقالوا : إن الصوفىّ منسوب إلى الصفاء .. ثم قالوا : إن هذا ليس بشىء لأن النسب إلى الصفاء . صفوىّ (بفتح الصاد والفاء) لاصوفى .

وقالوا إنها منسوبة إلى « الصُّفَّة » وأهل الصُّفَّة فى مسجد الرسول .. ولما كان النسب إلى الصُّفة « صفيًّا » لا « صوفيًّا » . فلذلك استظهروا أنها منسوبة إلى الصوف .

ومما يؤيد ذلك فيما يقولون :

١ - صحة النسب . فالنسب إلى الصوف صوفىّ .

٢ - وأن الصوف تتخذ منه « الخِرْقة » خرقة التصوف المشهورة التى كان الشيخ يُلبسها للمريد (التلميذ) فهى لباس الفقراء . والفقراء اسم من أسماء المتصوفة .

٣ - ومن المعروف أن بلاد فارس كانت مركزًا هامًّا من مراكز التصوف الإسلامى . وكثير من أعلام الصوفية الكبار من الفرس . وكلمة التصوف فى الفارسية هى « بشمينا بوش » ومعناها الحرفىّ « لابس الصوف » .

وكان خصوم المتصوفة يأخذون عليهم ذلك . ويندِّدون بالخرقة ويقولون :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه
ولا بكاءك إن غنَّى المغَنُّونا

* * *

وفى مواجهة الحرب العنيفة التى شنها الفقهاء والمتكلمون على المتصوفة - لجأ هؤلاء إلى الرمز والغموض ، وسارت المناهج الصوفية فى تيارين :

١ - تيار فكرى نفسى يعتمد على الفلسفة الروحية .

٢ - وتيار سلوكى يعتمد على الشيخ والمريد . وقالوا : إن المريد كان مرادًا قبل أن يكون مريدًا .

وظهر فى سماء الحياة الروحية أقمار من أمثال السيدة رابعة العدوية التى كانت - بحق - نغمةً متقدمة من أنغام العشق الإلهى الذى تردَّد بعد ذلك فى شعر الحسين بن منصور « الحلّاج » وفى أشعار سلطان العارفين الشيخ الأكبر « ابن عربى » ، وفى أشعار سلطان العاشقين « ابن الفارض » وفى أشعار « السهروردى » الحكيم الإشراقى يحيى بن جبش .. وغيرهم ممن عرفُوا الأذواق . وخاضوا بحار الأشواق . وساروا على الطريق فكانت مجاهدتهم جسرًا إلى الحقيقة التى يتهدَّوْن إليها بما ورد فى الشرع ثم بقلوبهم وأرواحهم أكثر من عقولهم . فهم كما يقول « فريد الدين العطار » لايثقون بالعقل كثيرًا . لأن مقصد الصوفى وراء العقل .. ولو أن الناس رجعوا إلى قلوبهم وأرواحهم لما وقعوا فى الخلافات والمشكلات التى يجرهم إليها تحكيم العقول .

وفى هذا يقول سلطان العارفين :

لاتعتمدْ غيرَ الذى تتلوه فى (م)
النَّص الذى نطق الكتابُ المحكم
واعبدْ إلهَ الشرع لاتعبد إلَهَ (م)
العقلِ . مَنْ هادُوا إليه وأسلموا
فالناس مختلفون فى معبودهم
فَمُنَزِّهٌ معبودَهُ ومُجَسِّمُ

ويردِّد ابن عربى هذا المعنى فى أكثر من موضع مؤكدًا أن الإدراك العقلى يخطئ ويصيب .. أما الإدراك الروحى فهو ضمان وصولك إلى الحقيقة .

وهذا هو منهج الإدراك الصوفى .

وهو - عندهم - أصل المعرفة .

القلب والروح . وليس العقل على أى حال . وفى هذا يقولون من (لزوم مالايلزم) .

مَنْ رَامَهُ بالعقل مسترشدا
سرَّحَهُ فى حيرةٍ يلهو :
وشابَ بالتلبيسِ أسرارَهُ
يقول من حيرته : هَلْ هُو ؟

وهذا المنهج الروحى هو الذى أدخلهم فى هياكل النورانية . وفتح أمامهم آفاق الإشراق والمحبة ، وتأدَّى بهم إلى العشق الإلهى .

ومن الذين سبقوا إلى تأصيل هذا المنهج ذو النون المصرى أبو الفيض ، فهو من أوائل من تكلموا عن المقامات والأحوال .

وكان يرى أن المعارف مراتب أعلاها معرفة الخاصة من الأولياء والمقربين الذين يعرفون الله بقلوبهم . وأن هذه المعرفة أسمى وأيقن لأنها لاتحصل بالتعلّم والكسب والاستدلال ولكنها إلهام يفيضه الله على قلب عبده . فيعرف ربه بربه .

بَيْنَ المَحَبَّةِ وَالعِشْق

ألا ترى أنك تستسيغ أن تقول « أحب التفاح » مثلا ولكنك لاتستسيغ أن تقول « أعشق التفاح » .

وكلمة الحب تدل – من الناحية اللغوية – على الودّ . والميل . والرغبة .

والحب بحسب متعلقاته أنواع ودرجات . فمنه حب الذات الذى ينتهى إلى مانسميه « الأنانية » . ومنه حب الغير الذى يصل إلى مانسميه « الإيثار » .. ومنه حبُّ الحياة . ومنه حب الكون كله وهو صورة من صور الحب الإلٰهى لأن مِنْ صِدْق الحبّ أن تحب مايصدرُ عن المحبوب .

أما العشق . فهو – من الناحية اللغوية – إفراط المحب فى حب من أحب . وهو – أيضًا – له متعلقات ومراتب . تبدأ من الصورة المادية الحسية . ثم تنتقل فى مدارج الصعود حتى تصل إلى الجمال المطلق والعشق الالهى .

والإفراط فى الحب الذى نسميه عشقًا يتطلب نوعًا من التسامى فى المعشوق .. ألا ترى أنك تستسيغ أن تقول « أحب التفاح » ولكنك لاتستسيغ أن تقول أعشق التفاح - مثلا -

حقيقته ومراتبه :

وعن الحب والعشق يحدثنا « داود الأنطاكى » ، فى كتابه تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق . وقد نُشر هذا الكتاب أخيرًا فى ستة أجزاء خصص الجزء الأول منها بالعشق الإلهى .

ونلاحظ أن كتاب داود الأنطاكى هذا أكثره نقولٌ من كتاب « مصارع العشاق » لأبى بكر السرَّاج .

ويقول الأنطاكى إنه اعتمد على كتاب السراج ، وإنه أخذه وحذف منه العنعنات والأسانيد والتكرار . وأضاف إليه بعض الأخبار . ورتبه فى فصول وبوَّبه فى أبواب تتناول ماهية الحب وحقيقته ومراتبه وعلاماته مستشهدًا فى كل ذلك بالأخبار والأشعار .

* * *

ويقرر داود الأنطاكى أن الحب يدلُّ على أريحية فى الطبع . ولطافة فى الشمائل ، لأن غاية العاشق أن يحصل على رضا معشوقه . وهو لايحصل على رضا المعشوق وإعجابه إلا إذا حصل على صفات الكمال التى تملأ نفس المحبوب وتقربه منه .

ويروى أن ابن أبى كثير قال لابن الورقاء : هل عشقت حتى

تكاتب وتراسل . ؟ قال : لا .. فقال له : إذن لن تُفلح واللهِ أبدًا . وأنشد :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فأنت وعَيْرٌ فى الفلاة سواءُ

ويرى الشيخ داود أن العشاق يعيشون فى مرتبة إنسانية أسمى وأعلى من حياة غيرهم :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى
ولا خير فيمن لايحب ويعشقُ

وهو ينظر إلى الحب باعتباره غاية الحياة . فليس وراء الاتصال بالمحبوب غاية . وهو لايعدل بالحب ملك الدنيا وأعلاق الحياة .

وما سرَّنى أنى خَلِىٌّ من الهوى
ولو أَن لى مابين شرق إلى غرب

فإذا كان هذا هو شأن الحب بعامة فكيف بالحب الكبير . العشق الإلهى .. وكيف يصل إليه السالكون .. وهل هو مقام . أو هو حال ؟

* * *

يقسمون النفس باعتبار أصولها ثلاثة أقسام :
أولها : النفس المعدنية الجامدة التى لاتعقل مايرادُ منها .. وما

يصدرُ عنها إنما يصدر بالخاصيَّة . أو بأمر أودعه الله فيها لمصالح يعلمها .

وثانيها : النفس النباتية وهي أرفع من الأولى باعتبار الذُّبول والتحلُّل . أى أنها تعيش وتموت . ففيها نَوْعُ حياة .

وثالثها : النفس الحيوانية .. وتفضل النفوس السابقة بالحركة الإرادية .. ومنها النفس الإنسانية ، وهى أفضل النفوس لأنها - كما يقول الأنطاكى - زبدة الكائنات . ومادامت تملك الحركة الإرادية فهى مقتدرة على أن تتبع شهوات الجسم ، وعوارض التكثيف فتكون حيوانية .. أو تعمل على خلاص النفس من ظلمة ماديتها . وإطلاقها من قفص الجسم ، فتلحق بعالمها الأصلى .. وهذه هى النفس الملكية المتخلصة من عوارض الكثافة . المنتظمة فى محض اللطافة . فالإنسان منقسم كأصله .. متميز بفعله .

الروح الأكبر :

وبهذا يحدد الأنطاكى مفهوم العشق الإلهى . فهو نزوع الروح إلى الروح الأكبر . الذى منه المبتدى . وإليه المنتهى .

ويوضح هذه الفكرة الدكتور عبد الوهاب عزام فى كتابه الممتع « فريد الدين العطار » المؤرخ الصوفى الكبير الذى يقرر فى نصوص متعددة نقلها الدكتور عزام عن الفارسية - أن روح الإنسان من روح الله . وأن الصوفية يحتجون لذلك بقوله تعالى :

فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) ولهذا فإن صلة الإنسان بربه أقوى من صلته بالعالم .. هكذا يقولون .

ويشير الدكتور عزام هنا إلى قصيدة الشيخ الرئيس « ابن سينا » المشهورة :

هبطتْ إليك من المحلِّ الأرفع
ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ
محجوبةٌ عن كل مقلة عارفٍ
وهى التى سَفِرَتْ ولم تتبرقع
وصلتْ على كُرهٍ إليك وربما
كرهت فراقك وهى ذات تفجُّع

فالورقاء هنا رمز للنفس الإنسانية التى هبطت من عالم الروح الأعلى إلى عالم الأرض ..

ولهذا يحن الواصلون من السالكين إلى الاتصال بالأصل والرجوع إليه . ولا يزالون يتدرجون فى معارج الوصول حتى يصلوا إلى مقام العشق الإلهى .

* * *

الطريق :

ولايصل السالكون إلى هذا المقام إلا بعد مكابدة رياضية . ومجاهدة نفسية يُصَفُّون فيها أنفسهم . ويسمونها « طريقًا » .

والطريق مراتب أو مراحل يسمونها « مقامات » ولكل مقام من هذه المقامات ظواهر يسمونها « أحوالا » .

وفَرَّقوا بين المقام والحال .

فالمقام هو الذى يصل إليه السالك بالمجاهدة والمكابدة ، والعمل والعبادة ، والزهادة .

وهكذا يأخذون أنفسهم بضروب من المعاناة فى سفرهم إلى الله .

وزادى قليل ماأراه مُبَلِّغى
أَللزادِ أبكى . أم لطول مسافتى ؟

فالمقام مجاهَدَةٌ . ورياضة ، وسعىٌ ، وعملٌ واكتساب .

أما الحال فهو – عندهم – معنى يَرِدُ على القلب من غير تعمد أو اجتلاب . مثل الحزن . والشوق ، والطرب . والأنس .

ولهذا قالوا : « الأحوال مواهب . والمقامات مكاسب » .

مقامات وأحوال ..

ومن هذه المقامات وتلك الأحوال تأتينا أنفاس رجال الوقت من الصوفية وفيها عبق وأقباس من أنغام الإشراق . والأنس ، والطرب ، والوَله ، والحزن ، وكل مايتقلّب فيه السالك من أحوال المحبة التى تتوهج بها أشعارهم .

ففى مقام « الحفظ » يتجرد المحب للمحبوب وحده بحيث يكون الميل إلى سواه إشراكًا فى الحب . أوردة عن شرعة المحبة . وفى هذا يقول سلطان العاشقين :

فلو خطرتْ لى فى سواك إرادةٌ
على خاطرى سهوًا قضيتُ بردَّتى

ولايزال العاشق يتدرَّج فى معارج الشوق والوجد . ويضرب فى مقاماته حتى يصل إلى مرتبة يتحول فيها إدراكه عن غير المعشوق (السِّوَى) بحيث يرى المعشوق فى كل شىء ، فهو لايرى فى كل

مايراه سواه : سوى المحبوب الذى لايغيب عنه أبدًا . أو كما يقولون :

خيالك فى عينى . وذكرك فى فمى
ومثـواك فى قلبى فـأين تغيبُ

وتجد هذا المعنى يتردّد فى أشعارهم كثيرًا :

علـى بُعْـدِكَ لايصـبر (م)
مَــنْ عــادتــهُ الــقُــرْبُ
وعن قربكَ لا يصبرُ (م)
مَن تـيـَّمَـه الحـــب
فـإن لم تـرَكَ الـعـيـنُ
فقـد أبصـرَك الـقلـــبُ

وقد يكون عجيبًا ذلك الشجن ، وهذا الشوق .. لأن الشوق لايكون حقيقة إلا فى حالة البُعد . فكيف به مع القُرب .
فى هذا يقولون :

ومِـنْ عـجـبٍ أنى أحـنُّ إلـيـهـمـو
وأسـأل عـنهم مـن لقـيت وهـم معـى
وتـطلبـهـم عـينى وهـم فى سـوادِهـا
ويـشتـاقـهم قـلبى وهـم بـين أضلعـى

وإذا وصل العاشق إلى مرتبة « العدم الكلى » فإنه ينصرف عن علائق هذه الحياة المادية الفانية ويموت عنها ليعيش فى سلام مع نفسه حيث يرى أن « وجوده الحقّ » هو ذلك العدم ، أو كما يقول الفارضى :

فَمَوْتى بها وَجْدًا حياةٌ هنيئةٌ
وإن لم أَمُتْ بالحب عشتُ بِغُصَّتى

وقريبٌ من هذه المرتبة مرتبة « الغناء » ويقصدون بها فناء العاشق فى المعشوق .

وفى هذا يقول سلطان العاشقين :

فلم تَهْوَنِى مالم تكنْ فِىَّ فانيًا
ولَم تَفْنَ مالم (تُجْتَلى)[1] فيك صورتى

ويقول الحسين بن منصور الحلاج :

وتحقّقْتُك فى السِّر فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان . وافترقنا لمعانى
إن يكن غَيَّبَكَ التعظيمُ عن لَحْظِ عِيانى
فلقد صيَّرَكَ الوَجْدُ من الأحشاءِ دانى

---

(١) كذا .

والحلّاج هو صاحب البيتين المشهورين . حيث يقول فى مقام الفناء عندما يفنى المحب فى المحبوب فلا يرى فى نفسه وفيما حوله سواه :

أنا مَنْ أهوى ومَنْ أهوٰى أنا
نحن روحان حَلَلْنا بَدَنا
فإذا أبصرْتَهُ أبْصَرْتَنى
وإذا أبصرتنى أبصرتَنا

وليس هذا المعنى مجرَّدَ خاطرة سنحتْ له .. ولكنه فكرةٌ أصيلة ، نُعاوِدُه ، وتلحُّ عليه ويُؤدِّيها ويُعبر عنها بصور مختلفة . فهو يقول :

مُزِجَتْ روحُكَ فى روحى كما
تُمْزَجُ الخمرةُ بالماءِ الزُّلالْ
فإذا مسَّكَ شىءٌ مَسَّنى
فإذا أنت أنا فى كل حَالْ

وفى هذا – أيضًا – يقول :

لى حبيبٌ حبُّهُ بين الحَشَا
لو يَشا يمشى على خَدِّى مَشَى
رُوحُهُ رُوحى . ورُوحى رُوحُهُ
إنْ يَشَا شئتُ . وإن شئتُ يَشَا

ومن أجل هذه الرموز التى قد يسمونها « شطحات » اصطدم أهل الظاهر بأهل الباطن . وقام الصراع – كما قلنا – بين الفقهاء والمتكلمين من ناحية ، والمتصوفة من ناحية منذ القرن الثالث الهجرى . وأوذى كثير من أعلام الصوفية واستشهد بعضهم .

أعلامٌ وَمَعَالم ..

قـطع الـليـل رجـالٌ
ورجــال وصلــــو
رقــدتْ فيــه أنـَـاس
وأنــاسٌ ســهـــــرو

وفى تيه المحبة ما أكثر الذين تركوا لنا آثار أقدامهم على الرمال .. وما أكثر الذين تَقَصَّوْا آثارَهم . فوصل بعضهم ، وانقطعت السبيل ببعضهم .

ولكننا نحط رحالنا فى رحاب سلطان العارفين ، وسلطان العاشقين .

ابن عربى ، وابن الفارض .

أو قل وحدة الوجود . ووحدة الشهود .. فهذه هى الوجازة الكافية الشافية التى تضع بين أيدينا خلاصة الفلسفة الروحية عند ابن عربى ، وعند ابن الفارض ومن لف لفهما .

ووحدة الوجود مذهب يوحد بين الخالق والمخلوقات . أو يردّ عناصر الكون فى تغيره وثبوته إلى أصل واحد عند من يقولون بالطبيعة .

وفى متاهات تفسير العلاقة بين الوجود والموجود شطحوا فظهرت فى كلامهم رائحة القول بالطبع ، أو رائحة القول بالعلة الأولى . أو علة العلل وهى نزعات غير مقبولة على إطلاقها . إذا أخذناها على ظاهرها .

وكنا فى أيام الحداثة ونحن نتعاطى الدروس الأولى فى علم الكلام نستظهر من متن « الخريدة . للإمام الدردير » قوله :

وَمَنْ يقل بالطبع أو بالعلّه
فذاك كفرٌ عند أهل المِلّه

* * *

وفى الحق أن وحدة الوجود طريق زلق شائك تزل فيه الأقدام ، وتتصارع الحقيقة والأوهام .

وخلاصة القول فيها – عندهم – أن الله والعالم شىء واحد .

أليس الله موجودًا فى كل الوجود .. فى كل مكان ؟

بلى . ولكن كيف ؟

قالوا – ولله المثل الأعلى – إن وجوده تعالى فى هذا العالم كوجود الماء فى الثلج . بمعنى أنهما – فى الحقيقة – شىء واحد .

فالثلج هو الماء . والماء هو الثلج . وإن اختلفت الشكول والمظاهر .

وأنشدوا فى ذلك :

وما الخلق فى التمثيل إلاَّ كثلجة
وأنت بها الماءُ الذى هو نافع

وهذا كلام قريب الشبه من كلام الرواقيين الذين يرون أن الحقيقة مادية ، تسودها وتوجهها قوة أزلية (الله) .

وفى هذا ملامح من الأفلاطونية الحديثة . وهى مذهب يجمع بين التصوف والفلسفة أنشأه فيلسوف « صعيدى » ولد بأسيوط فى القرن الثالث الميلادى وسمى نفسه « أفلاطين » تأثرا « بالمعلم الثانى » .

وكان أفلوطين هذا يقول بنظرية « الفيض » وفحواها أن الخالق الواحد - جل شأنه - فاضت عنه جميع المخلوقات . وأن كمال الإنسان لايتحقق إلا بتجرُّده من الجسد . واندماجه مع الواحد . ومعرفته بالشهود .

وهذا كما ترى فلسفة يمازجها التصوف . أو تصوف تشوبه الفلسفة .

مخاطر ومحاذير :

إن القول بوحدة الوجود كالمشى على الشوك .. فهذا هو

المنزلق الذى تردَّى منه المارقون إلى الهاوية .. كما كان المعراج الذى صعد عليه الواصلون إلى عالم الأذواق والأشواق على طريق العشق الإلهى حيث يرتفع اليقين إلى حقيقة أن روح الإنسان من روح الله ، وأن صلته بالله أقرب من صلته بالعالم ، وفى هذا يقول أبو الفيض ذو النون المصرى : « إن بين الرب والعبد حبًّا متبادلاً ، ومن ذاق الحب الإلهى عرف الذات الإلهية » .

* * *

وقالوا : إن الروح ليست محدودة بالجسم ، وإلا كانت جسمًا . ولكنها موصولة به تثير الشوق إلى الامتزاج بالأصل الذى هو كل شىء ، وليس فى عالم الحقيقة حقيقة سواه .

وفى بحار العشق الإلهى . وفى متاهات الشوق تواجد القوم ، وذهلوا عن أنفسهم ، وشطحوا وأبعدوا فقال بعضهم : « أنا الحق » ونسب إلى بعضهم قوله « مافى الجبة غير الله » وصوَّروا تجاريبهم تلك الروحية العميقة فى أشعارهم الرمزية الغامضة فأثاروا عليهم أهل الظاهر من الفقهاء وعلماء الكلام الذين رموهم بالزيغ والمروق ، واعتنوا بهم وأوسعوهم رهقًا . ومن هنا كانت المآسى والفواجع التى امتحن بها هؤلاء الأعلام .

مِحَنٌ وَفِتَنٌ

طَلبتُ المستقرَّ بكلِ أرضٍ
فلم أَرَ لى بأرضٍ مستقرًّا
ونلتُ من الزمان ونالَ منى
وكان منالُهُ حلواً ومُرًّا .

ويتهمون الصوفية بالسلبية ، والانقطاع للتأمل والزهادة . والانعزال عن قضايا الحياة . ومشاكل الجماهير .

وقد لا نرى ردا على هذه الدعوى أبلغ من الإشارة إلى حياة الكثيرين من رجالهم فى « الربط » يرابطون فيها مع المقاتلين ، ويستخدمون نفوذهم الروحى ، ويستثيرون الهمم ، ويستنفرون الرجال ..

إن هذا يقودنا إلى الإلمام بطرفٍ من حياة رجل الوقت الصوفى الكبير الشهيد « الحسين أبى منصور الحلّاج » ووقوفه راسخاً شامخاً

كالجبل الأشم فى وجه القوى التى تالبَت عليه وهو لا يملك غير دفء الحقيقة ، وعواطف الجماهير .

* * *

كانت بغداد يومئذ قد انتهت إلى دَرَك بعيدٍ من الانحلال والفساد ، وشاع فيها التَّرف . وانتشر الميلُ إلى الجوارى والغلمان .

والناس على دين ملوكهم . فقد كان على كرسى دولة الخلافة . الخليفة جعفر « المقتدر » وكان صبيًّا لاهياً يَتَدَلَّه فى حُب جارية رومية شغفته حبًّا فأسلمها قياده ، وانصرف إلى العبث . واللهو ، والمجون بين جواريه وغلمانه . تاركاً تصريف شئون الملك لوالدته ، وهى أم ولد اسمها « شغب » فصار فى يدها كل شىء ، وأصبح إليها الأمر والنهى .

وعلى الجانب الآخر كانت الخلافات العقائدية تطحن « أهل الظاهر » و « أهل الباطن » معاً ، فاحتربت الفرق الدينية من معتزلة . وحنابلة . وأشاعرة . وصوفية .

* * *

وفى هذا الجو المضطرب الخانق ارتفعت صيحة « الحلَّاج » وهاجم الانحلال والفساد فى غير هوادة . ودعا إلى تطهير الحكمْ ونظافته ، فكان صوته أعلى من صوت الحاكم وبطانته . والتفتْ حوله الجماهير وقد أثارتهم دعوته ، واهتز عرش الخلافة فى بغداد ،

واشتد الصراع على الملك ، ونجحت الثورة وارتفع إلى عرش الخلافة الشاعر البلاغى المعروف « عبد الله بن المعتز » .

ولكنه لم يستمر في دَسْت الحكم إلا يوماً واحداً ، فقد نجحت الثورة المضادة والتفَّ حول المقتدر خواصُّه وأنصاره فاستعاد عرشه . وقبض على ابن المعتز وقتله .

* * *

وظل صوت الحلاج يقرع الفساد ويسوط المفسدين .

وكان لابد لهم من إسكات ذلك الصوت الذى ظلّ مرتفعاً قويا يطرب الأسماع وينفذ منها إلى القلوب .

وكان الحلاج يناضل فى أكثر من جبهة .. كان يقاوم الجبهة التى يقودها الحكام وبطائنهم الذين أفسدوا الحياة السياسية فى بغداد .. كما كان يقاوم الجبهة التى يقودها علماء الظاهر من الفقهاء والمتكلمين الذين يناصبون الصوفية العداء ، فاجتمع عليه هؤلاء وهؤلاء . وأخذوه بكلمات لم يصلوا إلى أغوار معانيها . واختلقوا عليه بعضها . وواجهوه بقوله « أنا الحق » ورموه بالشعوذة ، واتهموه بالمروق والإلحاد ، وادعاء الإلهية ، والقول بالحلول والاتحاد .

وجاءوا به مكبلاً بالأغلال ، ولم يعجزهم أن يُدبِّروا الشهود ، ولم يكونوا فى حاجة إلى شهود ، فهم قد جاءوا به ليحكموا عليه لا ليحاكموه .

ولكن إذا كانوا يريدون قتله فلماذا يقتلونه على هذه الصورة لرهيبة الراعبة التي تناقلها الرواة ؟ !

وثارت الجماهير . واهتزت قوائم الحكم من جديد . فعجل ذلك بالنهاية .

والعجيب العجيب أنهم اشتطوا في تعذيبه ، وانصبَّ عليه الجلادون بسياطهم وهو يبتسم ، ويتواجد ويترنّم قائلاً :

عجبت منك ومنى يا منية المتمنّى
أدنيتنى منك حتى ظننتُ أنك أنى
وغبتُ في الوجدِ حتى أفنيتنى بك عنى

وإذا كان هذا عجيباً فأعجب منه أنهم بتروا يديه ، وقطعوا قدميه وهو هو لم يجزع ولم يتألم ، ولم تفارق الابتسامة شفتيه وهو يترنم ويتواجد ويقول :

وحرمَةَ الوُدِّ الذى لم يكنْ يطمعُ في إفسادِهِ الدهرُ
ما قُدَّ لى عضو ولا مفصلٌ إلا وفيهِ لكمو ذكرُ

وإنه لعجيب وغريب حقًّا ألا تفارق الابتسامة شفتيه وأن يتواجد ويترنم ويرقص وهم يجلدونه ويقطعون يديه ورجليه .

ذلك – عند أهل الظاهر – من المستحيلات التي تخرق الناموس – وتخرج عن المألوف . ولعل هذه الأخبار أن تكون من

صنع الرواة . فهى - عندهم - شىء يخرج عن نطاق التصور والتصديق .

وأنا رجل عقلانى . أميل إلى المادية ، ولا أومن بالخرافات . ولا أصدق أن الشىء يكون إلاّ أن يكون لحدوثه سبب طبعى يدخله فى نطاق المعقول المقبول .

ولكنى مع هذا أتصور أن ذلك شىء ممكن الوقوع .. وعندى لذلك أسباب ومبررات . وتفسير مقنع .

ذلك أن الإحساس بالألم لا يحدث لمجرد وقوع المؤثر (السبب) وإنما بانتقال أثر هذا المؤثر إلى المخ .. وهو ينتقل إلى المخ بواسطة شعيرات دقيقة تصبُّ فى النسيج العصبى الذى يليها عن طريق « العصب الوارد » الذى يخترق النخاع الشوكى ويصل إلى قشرة المخ حيث يوجد مركز الإحساس ، وعندئذ يحدث الشعور بالألم . ويظهر الأثر فى مكان المؤثر .

فالإحساس عملية تتمُّ فى المخ . وتظهر فى مكان حدوث المؤثر .

فإذا سكت مركز الإحساس فى المخ عن عملية الإحساس بالألم لأى سبب فعندئذ ينعدم الشعور بالألم - كما هو الشأن مع مشرط الطبيب فى العمليات الجراحية .

واعتبر ذلك فى المخدور ، أو الواقع تحت تأثير « البَنْج » أو الإغماء أو الاستغراق .. فإذا حدث شىء من ذلك فإن المخ لا يقوم بدوره فى عملية الإحساس بالألم .

من الممكن أن نتصور أن هذه هى حالة « التَّمَل الروحى » التى ارتفعت إليها روح الحلاج ، واستغرقته إلى الدرجة التى يتعطل فيها المخ عن الإحساس بالألم وهم يجلدونه ويقطعون يديه ورجليه .

وقد نستأنس لذلك بما روته أخت الحلاج عندما جاءها فى المنام بعد مصرعه فى قصة نذكرها من باب الاستئناس وليس من باب الاستدلال ، فقد ذكروا أن الحلاج جاء لأخته فى المنام بعد مصرعه فقال لها : يا أخت إلى كم تبكين علىَّ . ؟ فقالت : كيف لا أبكى وقد جرى عليك ما جرى .. فقال لها : يا أخت .. عندما قطعوا يدى ورجلِي . كان قلبى مشغولا بالمحبة ، ولما صلبونى كنت شاهداً ربى فلم أدرِ ما فعلوا بى .

والحكمة الإشراقية

وكذلك فعلوا بالسُّهروردى « المقتول » أبى الفتوح يحيى بن حبش الحكيم الإشراقى الذى جمع بين الفلسفة والتصوف فيما كان يسميه « علم الأنوار » وكان جماع حكمته الإشراقية أن الحقائق العلوية لا تنكشف بالفكر وإنما تنكشف بالذوق .

ونجد فى أشعاره العذبة أقباساً من مواجيده ورموزه تتوهج فيها أشواقه التى يتغنى بها فى قوله :

أبـدا تحـنُّ إليـكم الأرواحُ
فـوصـالكم ريحـانُها والـراحُ
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم
وإلى لـذيذِ لقـائكم تـرتـاحُ
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم
أبـداً . فكل زمـانهم أفـراحُ

والله ما طلبوا الوقوف ببابه

حتى دعوا فأتاهم المفتاحُ

حضروا وقد غابت شواهدُ ذاتهم

فتهتّكُوا لما رأوه وصاحوا

أفناهم عنهم . وقد كُشفت لهم

حُجُبُ البقا . فتلاشت الأشباحُ

* * *

وتنبهنا المراجع الصوفية إلى أنهم يقولون السُّهروردى « المقتول » تمييزاً له عن أبي حفص عمر السهروردي الفقيه المتصوف . وكلاهما من مواليد سهرورد وهى بُلَيْدة من أعمال فارس .

ولقد كانت شطحات السهروردي وسبحاتُه الروحية فى مَغاصات العشق الإلهى ووحدة الوجود أمراً تَعاظَمَ أهلَ الظاهر من فقهاء الشام الذين ناظرهم فى حلب فظهر عليهم ، وأحفظهم عليه فسعوا به لدى صلاح الدين الأيوبى ، فأمر ابنه « الظاهر » سلطان حلب بقتله فقتلوه عام ١١٩١ م .

وسلطانُ العارفين

ليت شعري هل دَرَوْا أيَّ قلب ملكُوا
وفؤادي لو دَرَى أيَّ شِعبٍ سلكوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
حار أربابُ الهوى في الهوى وارتبكوا . ؟

وكان سلطان العارفين الشيخ الأكبر « ابن عربي » ممن أوغلوا في مفازات وحدة الوجود ، وانطلقوا منها إلى آفاق العشق الإلهي وهو القائل .

أَدِينُ بدين الحبّ أنَّى توجهتْ
ركائِبُه فالحبُّ ديني وإيماني

ولم يقل ابن عربي بوحدة الوجود وحسب ، وإنما قال أيضاً بوحدة الأديان ، فالدين كله لله . وهي نظرة سمحة متقدمة .

وكان جماع فلسفته قوله : « سبحان من خلق الأشياء وهو عينها » يعني أن وجود المخلوقات هو عين وجود الخالق ، ووجود

الله تعالى هو الوجود الحقيقى ووجود العالم هو الوجود الوهمى . وقد مَرَّ بنا كيف أخذوا الحلاج بظاهر قوله « أنا الحق » .

وكنا فى صدر الشباب نُلِمُّ بكتاب ابن عربى الشهير « الفتوحات المكية . فى معرفة الأسرار الملكية والملكوتية » فنقرأ فيه ما يبهر عقولنا ، ويبلبل أفكارنا . كقوله فى مقدمة هذا الكتاب : « ولما حيرتنى هذه الحقيقة . أنشدت على علم الطريقة . للخليقة :

العَبدُ حقٌّ . والرب حقٌّ
يا ليت شعرى مَن المكلَّف
إن قلت عبد فذاك نفىٌ
أو قلت رب فهل يُكَلَّفْ

ومثل ذلك أو أبعد منه إغراباً أبيات وردت فى « فصوص الحكم » تجدها فى « فص الحكمة اللوطية » .

وكنا فى أيام الحداثة نستظهر هذه الأبيات ونرويها للإغراب والمباهاة . ولم تسمح لنا حداثة السن يومئذ أن نُحلِّق فى هذه الأجواء البعيدة ، أو أن نقترب من حقيقة معناها الباطن . فهل اقتربنا من حقائق معانيها الآن بعد أن كلأ العمر . وتجاوزنا حدود الشباب ؟

* * *

ثم كان ابن عربى – إلى هذا – يثير قضايا كلامية مثيرة تنبع من رؤيته لوحدة الخالق والمخلوق كما ترى فى قوله :

تُحاسبُهم بما فعلوا
وما فعلوا الذى فعلوا
وتَطْلبُهم بما عملوا
وأنت خلقتَ ما عدلوا
لئن أُخِذوا بما عَلِموا
فأعظمُ منه ما جهلوا

ولهذا لم يكن مستغرباً أن يثور به الفقهاء . وأهل الظاهر والرأى من أمثال ابن تيمية ، وابن خلدون وابن حجر (العسقلانى) وغيرهم ممن فَسَّقُوه ورموه بالإلحاد والحلول والقول بوحدة الوجود - كما يفهمونها - .

ولم يكن مستغرباً - أيضاً - أن يَنْبرِى للدفاع عنه أعلام من الفقهاء وأهل الرأى من أمثال الإمام الرازى . والصفدى . ومجد الدين الفيروز ابادى (صاحب القاموس المحيط) وغيرهم ممن فهموه وعرفوا قدره وعدوه شيخهم الأكبر .

وعندما جاء ابن عربى إلى القاهرة . ونزل على جماعة من أهل الطريق فى « زقاق القناديل » بحى الأزهر - عندئذ انتشرت أفكاره هذه فأثارت علماء الظاهر فى مصر فسعوا بينه وبين الملك العادل . فأوغروا صدره عليه فكاد يوقع به ولكنه نجا بنفسه وانحدر إلى بلاد الشام ليلقى وجه ربه فى دمشق ويدفن بها فى عام ١٢٤٠ م .

وَسُلطانُ العاشقين

إلىَّ رسولاً كنت مِنّى مرسلاً
وذاتى بآياتى علىَّ اسْتَدَلَّتِ

وكان ممن ساروا على هذا الدرب سلطان العاشقين « شرف الدين أبو حفص عمر » المعروف بابن الفارض الحموى أصلاً . القاهرى مولداً ونشأة ووفاة ، فقد قدم أبوه من « حماة » إلى مصر ، وتولى عملاً يشبه عمل « القاضى الشرعى » من بعض الوجوه إذ كان يقوم بإثبات ما يفرض للنساء من الحقوق على الرجال . ولهذا لقب بالفارض .

وابن الفارض هو شاعر العشق الإلهى غير منازع . ولهذا لقب بسلطان العاشقين .. وقد سلك طريق المجاهدة والرياضة النفسية ، فساح فى وادى المستضعفين بالجبل المقطم ، كما ساح بأودية مكة حيث قضى خمسة عشر عاماً عاد بعدها إلى القاهرة ليعطر أجواءها بنفحات من طيوب شعره الذى لم يأخذ من جماله بعض التكلُّف الذى جعل يُثْقل الشعرَ فى هذا العصر والعصور التالية . بتراكم

المحسنات ، والتقديم والتأخير . والمشاكلة اللفظية والإغراب كما ترى فى قوله :

كهـــلال الشَّــك لـــولا أنــه
أنَّ . عَيْنِي عَيْنَــهُ لم تَتَـأَىّْ

فى قصيدته :

سائقَ الأظعان يطوى البِيد طَىّْ
مُنْعِمًا عَرِّجْ على كثبانِ طَىّْ

ولكنك إذا تجاوزت عما يعترضك من أمثال ذلك فإنك واقع على أطايب الفارضى وروائعه التى يُحلِّق بها فى سماء العشق الإلهى .

وإذا كان ابن عربى يقول بوحدة الوجود فإن ابن الفارض يذهب إلى وحدة الشهود . وهى ليست بعيدة عن وحدة الوجود ولكنها تزيد عليها باتخاذ الامتزاج بين المحب والمحبوب سبيلاً للمعرفة عن طريق الشهود .

ومما يروى فى هذا الصدد أن ابن عربى قام بنفسه أن يضع شرحاً لقصيدة ابن الفارض « نظم السلوك » وهى التائية الكبرى .. وسأل ابن عربى ابن الفارض فى ذلك فقال له : كتابك « الفتوحات المكية » شرح لها .

ثم إن ابن الفارض — كان عربى — يقول بوحدة الأديان . وأن الدين كله لله .

ولابن الفارض ديوان شعر كبير شرحه البوريني « حسن البوريني » شرحاً لغويًّا وأدبيًّا . وشرحه عبد الغني النابلسي الصوفي الكبير شرحاً صوفيًّا .. وقد طبع الديوان مع شرح البوريني وقطوف من شرح النابلسي في جزأين كبيرين يقعان في أكثر من خمسمائة صفحة من القطع الكبير .

ومن هذا الديوان نقع على قصيدة « الخمر الإلٰهية » ونقتطف منها هذه العناقيد .

يقول الفارضي :

شربنا على ذكر الحبيبِ مدامةً
سكرنا بها من قَبْلِ أن تُخلقَ الكرمُ
ولولا شذاها ما اهتديتُ لحانِها
ولولا سناها ما تصوَّرَها الوهمُ
إذا ذكرت في الحيِّ أصبح أهلُهُ
نشاوى ولا عارٌ عليهم ولا إثمُ
وإن خطرتْ يوماً على خاطر امرئٍ
أقامتْ به الأفراحُ . وارتحلَ الهَمُّ
ولو نَضَحُوا منها ثَرَى قبرِ ميتٍ
لعادتْ إليه الروحُ وانتعشَ الجسمُ

يقولون لى صِفْها فأنت بوصفِها
خبيرٌ . أجل عندى بأوصافِها علمُ
صفاءٌ ولا ماءٌ . ولطفٌ ولا هَوًا
ونورٌ ولا نارٌ . وروحٌ ولا جسمُ
وقالوا : شَرِبْتَ الإِثمَ .. كَلَّا . وإنما
شربتُ التى فى تَرْكِها عندىَ الإِثم
فما سكنتْ والهمّ يوماً بموضعٍ
كذلك لم يَسْكُنْ معَ النَّغَمِ الغَمُّ
فلا عيشَ فى الدنيا لِمن عاش صاحيًا
ومَنْ لم يمُتْ سكراً بها فاته الحَزْم
على نفسِه فلْيَبْكِ مَنْ ضاع عمرُهُ
وليس له فيها نصيبٌ ولا سَهْمٌ ..

الحبُّ الإلهيّ والحبُّ البَشرى

وسألنى الأستاذ فاروق شوشة ونحن نجلس إلى مائدته الثقافية : هل هناك صلة بين الحب الإلهى والحب البشرى . ؟

والجواب : أنْ نعم .

لأن التصوف رحلة إلى الحقيقة عن طريق الإدراك الوجدانى ، والارتفاع عن ترابية الأشباح ، والتخلص من الكثافة . والدخول فى عالم اللطافة - كما يقولون - حتى تصفو نفوسهم لاستقبال فيوض الحبّ الإلٰهى .

ومن خصائص الحب أن يحب المحب كلَّ ما يصدر عن المحبوب .. ومن هنا كان حب الواصلين للكون كله فما بالك بالإنسان .

واعتبر ذلك فى المنهج السلوكى الذى يعتمد على الشيخ والمريد « التلميذ » .

وهنا يَرِدُ قولُهم : إن المريد كان مُراداً قبل أن يكون مريداً .

وهنا تتجلى المحبة البشرية فى حب الله بين الشيخ والمريد . وبين المريد والمريدين . وبين هؤلاء والإنسانية جمعاء .

* * *

أما فى منهج الفلسفة الروحية فمع التسليم بوجود هذه الصلة – فإنها تختلف فى الدرجة . لأن الأمر هنا يرجع إلى المقامات التى يجتازها المسافرون إلى الله كما يرجع إلى الأحوال التى يتقلبُون فيها . فمنهم مَنْ يحب الكونَ كله باعتبارِهِ مظهراً يتجلى فيه جمال الصانعِ الأكبر .. ومنهم مَنْ يشغلُه حبُّه تعالى عن حب غيره بحيث يستغرقه هذا الحب فلا يحب سواه .. وقد سُئلت السيدة رابعة العدوية : كيف حبك لرسول الله : فقالت ، إنى والله أحبه حبًّا شديداً ولكن حبَّ الخالق شغلنى عن حب المخلوق .

إن هذا يعنى أن حب الله تعالى – إذا استغرق القلب – يطغى على كل حب فلا يكون فى قلب المحب مكان لغير المحبوب . أو كما يقول الحلاج :

مكانُكَ من قلبى هو القلبُ كلُّه
فليس لخلقٍ فى مكانك موضعُ

ولأن الصوفيين يعيشون فى عالم من المواجيد الروحية دارت أنغامهم حول هذه المعانى . وجاءت أشعارهم أقباساً من الوجد .

والتوق . والذوق . والأنس . والطرب . والحزن والفناء تبعاً للمقامات والأحوال .. على أى حال ، فعبقت أشعارهم بالنفحات القدسية . والأنفاس الروحانية .

ولنا وقفة مع الشعر الصوفى .

الشِّعرُ الصُّوفى

والشعر الصوفى لون فريد فى الشعر العربى . ليس من حيث موضوعه وحسب . ولكن من حيث أسلوبه . وطريقة أدائه . ورموزه وكناياته .

وللشعر الصوفى معجمه الخاص ، وتعبيراته الرمزية الخاصة – الأمر الذى شحنه بالغموض ، وبخاصة بعد اتساع الفتوحات الإسلامية ، واختلاط الحضارات ولقاح الأفكار والفلسفات .. عندما اختلط التصوف الإسلامى بعناصر كلامية . وأخرى فلسفية .

وأنت تلتمس الرمزية فى مأثور الشعر العربى فلا تكاد تعثر عليها إلا فى أشعار المتصوفة . فهم يصوغون أفكارهم فى صور رمزية لا تخلو من ضبابية تتسم بالغموض فهم – مثلاً – يذكرون الخمر بأسمائها وأوصافها ويريدون بها المعرفة ، أو الشوق والمحبة . والحبيب . ويذكرون الندامى ويقصدون بهم السالكين ، ويذكرون أهل الدير ويريدون بهم أصحاب المعارف .. فهم يستخدمون الرموز

فى التعبير الفنى عن تجاربهم الروحية .

وإذا سألت : لماذا الرمز ؟ ولماذا الغموض ؟ طالعك أكثر من جواب .

فمن قائل : إن هذا الغموض يراد به الحرص على المعانى الصوفية ، وصون القداسة وأسرار الروحانيات .

ومن الواضح أنهم حين يشطحون يخالفون فى شطحاتهم أهل الظاهر ، ويجتلبون خصومتهم ، ويكونون هدفاً لحملاتهم ، ولهذا لجئوا إلى الرمز والغموض ليتسع لهم باب التأويل ليخرجهم من مؤاخذة أهل الظاهر الذين يتربصون بهم .. وربما كان أقرب مثل لذلك ما حدث للشيخ الأكبر « ابن عربى » عندما قال :

يا مَنْ يرانى ولا أراهُ
كم ذا أراهُ ولا يرانى

فقد أنكروا عليه ذلك ، وقالوا له : كيف تقول إنك تراه ولا يراك ؟ ! فقال :

يا من يرانى مجرماً ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعماً ولا يرانِى لائذا

فتخلص بذكر متعلقات للأفعال بحيث يظهر المعنى بعيداً عما يوحى به ظاهر الألفاظ .

على أن هناك تخريجاً مقنعاً وطريقاً نوجزه فيمايلى :

فقد وجد القوم أنفسهم فى عالم روحى لا يستطيعون الإلمام بأطرافه أو كما يقولون :

إذا تغلغلَ فكرُ المرءِ فى طرفٍ
مِنْ بحرِهِ غَرقتْ فيه خواطرُهُ

وقد وجدوا أنهم لا يستطيعون بالألفاظ المحدودة ذات الحروف التسعة والعشرين أن يعبروا عن هذا العالم غير المحدود . فلجئوا إلى الصيغ الرمزية وفى هذا يقولون :

وإنَّ قميصاً خِيطَ من نَسْج تسعةٍ
وعشرين حرفاً عن معانيكَ يَقْصُرُ

* * *

وأخيراً نقول : إن الغموض قد يكون مقصوداً لذاته ، لأنه يحدث لذة فنية فى نفس المتلقِّى إذا تأمل مطاوى الكلام ووصل إلى حَلِّ رموزه وفهم معناه .. وذلك شبيه بالراحة النفسية التى يجدها الإنسان عندما يصل إلى حَلّ لغز من الألغاز ، ولهذا كانت الألاغيز منذ كانت رياضة عقلية محببة .

* * *

وهناك خصيصة أخرى ينفردُ بها الشعر الصوفى وهى : وحدة الموضوع .

وإذا أنت تجوَّلْتَ فى بساتين الشعر الصوفى فسوف ترى أنها تنتظم أشجاراً متناظرة تنتمى إلى أصل واحد . وتثمر نوعاً واحداً من الثمار .. وإذا كان هناك اختلاف فهو فى الحجم ، أوفى الجودة ، وليس فى النوع على أىّ حال .

وعهدك بدواوين الشعر التقليدى أن ينتظم الواحد منها ألواناً متباينة من القصائد المختلفة ألوانُها وفنونها ، ففيها المدح والهجاء . والغزل والوصف .. الخ خلافاً لدواوين الشعراء الصوفيين التى تمثل خطوةً متقدمة فى وحدة الديوان الشعرى وتناوله موضوعاً واحداً يتناولونه مباشرة فيطرقون باب الندم والتوبة والاستغفار والدعاء .. أو يتناولونه بصورة غير مباشرة فتكون قصائد العشق الإلهى الذى يُفَغِّمُ أشعارهم بطيوب المواجيد الروحية .

* * *

وليست دواوين الشعر الصوفى المكتوب بالعربية هى كل ما تَغَنَّى به شعراء التصوف الإسلامى . ولا هى أكثره . بل هى النزر اليسير من هذا النتاج الضخم الغزير الذى نظمه بالفارسية أعلام التصوف الإسلامى من الفرس . أو الذين تضرب أعراقهم إلى الفرس فلا سبيل إليه إلا بمعرفة الفارسية .

وصحيح أنه قد سبقت محاولات لترجمة بعضه إلى العربية . ولكنها كانت بمثابة قطرات من بحر .. ثم هى لا يمكن أن تنقل هذا

الشعر إلى العربية بكل صناعته الفنية . وخصائصه الجمالية ، لأن قصارى المترجم أن ينقل إلينا المعانى ، وليست المعانى هى كل لشعر .

ونحن نميل إلى رأى الجاحظ فإن شيخنا أبا عثمان يقول : « إن لشعر لا يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، وإنه متى حُوِّل انقطع ظمه . وبطل وزنه . وسقط موضع العجب منه » .

وغنى عن البيان . أن شيخنا أبا عثمان . يتكلم عن الشعر لغنائى الذاتى . فهذا هو الشعر العربى فى أيامه فلم ينتظم ديوان لشعر العربى - إلى أيامه - الشعر الملحمى أو القصصى ، أو لتمثيلى ومثل هذه الألوان من الشعر الموضوعى تيسر الأحداث يها ترجمتها من لغة إلى لغة .

* * *

ونحن نتجوَّل فى بساتين الشعر الصوفى فَنَسْتَرْوِح أقسام هذه المواجيد ، وننشق عبيرها ، ونستجلى ملامحهم الصوفية فى تلك الأشعار باعتبارها الصياغة الفنية لهذه التجارب الروحية فى بحار الشوق والمحبة .

وربما كانت السيدة « رابعة العدوية » هى المقدمة الموسيقية الرائعة المبكرة التى سبقت إلى التعبير عن تجربتها الروحية بهذه الأنغام الشائقة والشيقة معاً .

كانت تقول عن صلتها بالله : « والله ما عبدتُه خوفاً من ناره .

ولا طمعاً فى جنته . فأكونَ كالأجير السوء . إذا خاف عمل .. ولكنى أعبده حبًّا له . وشوقاً إليه » .

وسئلت مرة : « كيف رأيت الحبَّ بينك وبين المحبوب ؟ فقالت ليس للمحبِّ وحبيبه « بَيْن » وإنما هو نطقٌ عن شوق ، ووصف عن ذوق ، فمن ذاق عرف . ومَنْ وصف فما وصف ..

وكيف تصف شيئاً أنت فى حضرته غائب ، وبشهوده ذائب ، وبصحوك منه سكران . وبفراغك منه ملآن » .

وأنشدت :

كـأسى وخمـرى والنـديمُ ثـلاثـةٌ
وأنـا المشُوقَـةُ فى المحبـةِ رابِعَـه
كـأسُ المسـرةِ والنـديمِ يـديـرهـا
سـاقى المـدامِ علـى المـدَى متتـابعـه
فـإذا نـظرتُ فـلا أَرِى إلاَّ لـه
وإذا حضـرتُ فـلا أُرَى إلاَّ مَعَـه
يـا عـاذلى إنى أحـبُّ جمـالَـهُ
تَـالله مـا أُذْنى لعـذلـك سـامعـه
كم بِتُّ مِنْ حُـرَقى . وفَرْط تعلقى
أُجْرِى عيونـاً من عيـونى الـدامعه
لا عَبْرتى تَـرْقَـا ، ولا وصلى لـه
يَبْقَى ، ولا عينى القـريحةُ هـاجِعَه

ورابعة العدوية بالنسبة – للشعر الصوفى – تعتبر شاعرةَ مقلة وليس لها – فيما نعلم – ديوان شعر مطبوع ، أو حتى مخطوط .. وإنما نعثر على نتف من أشعارها منثورة فى مراجع المناقب والطبقات .

ولكننا نجد فى هذه الأشعار اختلافاً فى الأنفاسِ – الأمر الذى يدلُّ على أن بعض ما نُسب إليها من الأشعار مضافٌ إليها . محمول عليها وقد نسبوا لها أبيات أبى فراس المشهورة :

فليتك تَحْلُو والحياةُ مريرةٌ
وليتك ترضى والأنامُ غِضابُ
وليت الذى بينى وبينكَ عامرٌ
وبينى وبين العالمين خرابُ
إذا صَحَّ منك الودُّ . فالكلُّ هيِّنٌ
وكلُّ الذى فوق الترابِ ترابُ

* * *

وقد بقى لنا من رابعة العدوية أخبارٌ متناثِرة ، نَرى فى ضوئها ملامح السيدة رابعة ، كما تبدو فى نفسى صورتها « شهيدة العشق الإلهى » تلك الصورة التى أوحت إلىَّ بتقديم السيدة رابعة فى هذه الصورة الفنية . التى صدحتْ بأغانيها أم كلثوم .. فهنا لنا وقفة بين الحقيقة التاريخية . والحقيقة الفنية إن صحّ هذا التعبير .

شَهِيدَةُ العِشْقِ الإِلهى

شُخُوصٌ

عبد الله	: والد رابعة .
أمة الله	: والدة رابعة .
رابعة	
ثلاثة أطفال	: هُنَّ أخواتها .
الأمير	
عمار	: صاحب الخمارة .
أبو حرام	
هشام	أصدقاء الحانة .
حمزة	
مبروك	: خادم .
مالك	: خادم .
عبدة	: خادمة رابعة .
ابن زياد	: مولى رابعة .
علقمة	
ورد	أصدقاء ابن زياد .
هَمَّام	
اللص	
ابن دينار	: فقيه متصوف .
سفيان	: فقيه متصوف .
	وبعض النكرات .

مِيلاد

كأنما وُلد القرن الثانى الهجرى ليملى هذه الحوادث .

مدينة البصرة . وكوخ صغير فى طرف المدينة تأوى إليه أسرة فقيرة : الشيخ عبد الله (والد رابعة) ، وزوجته أمة الله . وبناتها الثلاث .

إنه يستقبل مولودًا جديدًا . ويرجو أن يكون غلامًا على بناته الثلاث .. وجلس الشيخ ناحية يفكر .

ويصل إلى سمعه بكاء الوليد الجديد . ويعرف أن المولود بنت . ويرفع رأسه قائلا وهو يتنهد :

عبد الله : هيه يا صغيرتى . أنت لا تعرفين الحياة ، ولكنك تستقبلينها بالبكاء . [ثم يتنهد وهو

يقول] .. هكذا الدنيا .. بكاء ساعة نستقبلها . وبكاء ساعة نخرج منها .
[ويصل إليه صوت بكاء المولود] . ابكى .. ابكى يا صغيرتى .

عائشة : [الطفلة] . وأبكى أنا الأخرى يا أبى ؟ [تقولها فى سذاجة الطفولة] .

عبد الله : [فى ألم] .. لا . لا يا عائشة .

عائشة : حسبتك تريد هذا يا أبى .

عبد الله : [يلاطفها قائلا] .. عائشة .

أسماء : [ومعها سكينة أختها] .. أبى .. أبى .

عائشة : أسماء . سكينة .

عبد الله : [يسكتها]انتظرى عائشة .

أسماء : [وفى صوتها لون الضحك] .. أرأيت إلى أختنا الصغيرة يا أبى .

عبد الله : [من قلبه].. يارب أنت قدَّرتَ فدبِّرْ .

سكينة : كم هى جميلة يا أبى .

أسماء : [متضاحكة]جميلة ولكنها تصرخ دائمًا .

عبد الله : [متضاحكا] .. لعلها تنادينى .

سكينة : [وفى صوتها لون الضحك] .. أجل يا أبى .

عبد الله : يا للصغيرة المسكينة .

أسماء : ألا تكلم أمي يا أبي ؟ .

عبد الله : أفعلُ يا ابنتي .

خذا أختكما هذه عني فلاعباها .

عائشة : [في فرح] ونلعب تحت النخيل يا أسماء .

أسماء : [وهي تنطلق معها] تعالى يا عائشة .

عبد الله : [وهو ينهض متثاقلاً] .. أنت تعلم . وغيرك لا يعلم .

[ثم بصوت مرتفع] .. لا تذهبا بعيدا .

سكينة : [من بعيد] .. نحن وراء النخيلات يا أبي .

عبد الله : [يتجه إلى الكوخ ويفتح بابه ويدخل قائلا] .. كيف حالك الآن يا أم البنات ؟ .

أمة الله : [تبكي] .

عبد الله : لا .لا تحزني أمة الله .

أمة الله : [وهي تبكي] .. كنت أرجو أن تكون هذه المرة ولدًا تقرّ به عينك يا عبد الله .

عبد الله : [وهو يقاوم شعوره] .. ولكن الله أرادها بنتًا يا أمة الله .

أمة الله : [في حسرة] .. إنهن ثلاث بنات يا عبد الله . وهذه رابعة .

عبد الله : أهو اعتراض على إرادة الله ؟ .

أمة الله : [مستنكرة] .. معاذ الله .. ولكن ألا ترى إلى ما نحن فيه من فقر وسوء حال ؟ .

عبد الله : [بلهجة الاستسلام] .. إه .. يدبرها خالق الليل والنهار .

أمة الله : [بصوت يتهدج] ليس فى الدار قطرة دُهن ندهن بها موضع خلاصها .. وليس لدينا قنديل نستضىء به ، ولا خرق نلفُّها بها .. ولا .

عبد الله : [يقاطعها] .. كفى . كفى يا أمة الله .. أنت متعبة .

أمة الله : [فى حسرة] . بنتٌ ومسغبة ! إلى الله المشتكى .

عبد الله : [فى لطف] .. رويدك أم البنات . إنك والله لا تعرفين أين يكون الخير .

أمة الله : [من خلال دموعها] .. عبد الله .

عبد الله : [يواصل حديثه قائلًا] .. لقد والله رأيت فيما يرى النائم بالأمس كأن هاتفًا يصيح بى : قم عبد الله . واذهب إلى عيسى زاذان . .

أمة الله : أمير البصرة ؟

عبد الله : نعم يا أم البنات .. وقالى لى الهاتف : « إن الأمير سيعطيك عقيقة المولود » .

أمة الله : [بصوت حالم].. عقيقة المولود . ! .

عبد الله : نعم : نعم . وفى يوم مشهود .

أمة الله : أضغاث أحلام يا عبد الله .

عبد الله : ولكنى قمت من نومى فاستعذت من الشيطان .. وقرأت ماتيسر من القرآن .. ثم نمت . فإذا الهاتف هو الهاتف . والكلام هو الكلام .

أمة الله : [فى دهشة] .. عجبًا .

عبد الله : [يزيدها دهشًا] .. وقمت من نومى فزعًا . فتوضأت . وصليت . واستعذت . وقرأت ثم نمت . فإذا الهاتف للمرة الثالثة . فلم يبق إلا أن تكون رؤيا صدق يا أم البنات .

أمة الله : هذا أعجب يا عبد الله .

عبد الله : وأى عجب يا أمة الله .

أمة الله : ولماذا لم تفعل ما تؤمر ؟ .

عبد الله : أفعل إن شاء الله .

أمة الله : وتذهب إلى الأمير يا عبد الله .

عبد الله : أذهب يا أمة الله .

أمة الله : ويعطيك عقيقة المولود .

عبد الله : [وفى صوته لون الضحك]فى اليوم المشهود .

المولودة : [تبكى فى أثناء كلامها] .

عبد الله : [فى إشفاق] ياللصغيرة المسكينة .

[ثم فى لطف] .. انظرى أمة الله .. كم هى جميلة .

أمة الله : ما ذنب هذه الصغيرة ؟ [وهى تبكى

عبد الله : [مواسيا].. لا تبكى أمة الله .. وأمّلى خيرًا .. أنا ذاهب إلى الأمير .

[ويظهر صهيل خيول وترتفع بعض الأصوات وهم يطرقون باب الكوخ] .

أمة الله : [لزوجها] ما هذا يا عبد الله .

عبد الله : لا أدرى أمة الله .

[ثم بصوت مرتفع] .. من الطارق .

جندى : [يصيح من الخارج] .. افتح يا رجل .. إنه الأمير .

أمة الله : [تشهق وتقول فى دهشة] .. يا إلهى . ! .

عبد الله : [وهو يسرع إلى الباب ويفتحه ويستقبل الأمير قائلا] .. سيدى .. لقد والله كنت على أن أسعى إلى الأمير .

الأمير : بل نحن الذين نسعى إليك أيها العبد الصالح .

لبنات : [مقبلات يتصايحن فى خوف وذعر] . أبى . أبى . ماذا يريدون بك .

عبد الله : لا تخافا يا ابنتىّ إنه الأمير .

أسماء وسكينة : الأمير .. !

الأمير : لا تراعا يا صغيرتىّ . أنا فى ضيافة أبيكما .

عبد الله : لا أدرى ماذا أقول .. لقد كنت والله فى طريقى إليك يا مولاى . فساقك الله إلىّ .

الأمير : [فى دهشة] .. هذا عجيب ..

[ثم يستدرك بسرعة] .. ولكن لماذا كنت تقصدنى .

عبد الله : بل لماذا جئت أنت يا سيدى ؟ .

الأمير : قل لى أنت أولاً : لماذا كنت تريد أن تسعى إلىّ .

عبد الله : [وهو يتمثل الرؤية التى رآها فى منامه] .. إنه يا سيدى إنه .

لأمير : [بيشجعه على الكلام] .. إنه ماذا ؟ .

عبد الله : إنه حلم رأيته . وهاتف سمعته .

الأمير : [وقد فوجئ] . . يا إلهى . . ماذا تقول يا عبد الله ؟ .

عبد الله : [فى اضطراب] .. سيدى .

الأمير : كم مرة جاءك الهاتف ؟
عبد الله : ثلاث مرات يا سيدى .
الأمير : [فى غاية التأثر] .. لا إله إلا الله .

[ثم يقبل عليه قائلا] .. وكلمك عن عقيقة المولود .

عبد الله : [فى دهشة]الله ! من قال لك يا سيدى ؟
الأمير : الهاتف الذى قال لك يا عبد الله .
عبد الله : يا ربى .
الأمير : [مواصلا كلامه]لقد رأيت ما رأيت . وسمعت ما سمعت .. ولهذا أتيت .

[ويقدم لهُ الصرة وهو يقول] .. خذ . يا عبد الله .

عبد الله : ما هذا ؟
الأمير : هذه عقيقة المولود .. وهذا هو اليوم المشهود .
عبد الله : الحمد لله . والشكر لك يا أمير المؤمنين .
الأمير : بل الحمد والشكر لله .
عبد الله : لقد صادف الغيث أوانه يا أمير .
الأمير : لن تحمل هم الحياة مادمت حيًّا يا عبد الله .
عبد الله : أطال الله حياتك . وأحسن جزاءك .

الأمير : [وهو يتهيأ للانصراف]سأراك يا عبد الله .. أليس كذلك ؟ .

عبد الله : كلما شئت يا أمير .

الأمير : حسنٌ . سلام عليك أيها العبد الصالح .

عبد الله : [يشيعه قائلا]وعلى الأمير السلام .

الأمير : [يرتفع صوته لتسمعه أمة الله ، فى الداخل] سلام لك أيتها الأم الصالحة .

أمة الله : [من الداخل]وعلى الأمير السلام .

الأمير : [وهو ينطلق] .. سلام على بناتكما الثلاث .

عبد الله : [يلاحقه متضاحكا]والرابعة يا أمير .

الأمير : [من بعيد] .. والرابعة .

فواجع

ومرت السنون ، وتعاقبت الأيام ، وشبت البنات الثلاث . ويفعت (الرابعة) .

وكانت سنة جدباء . قحط فيها الناس . وكلب الزمان . واجتاح البصرة الطاعون . ورصد الحاكم أفواه الطرق على البصرة يمنع الدخول إليها والخروج منها .

وبات الناس من ذلك فى كرب عظيم .

بو محمد : [معترضًا] .. كلا هذا غير صحيح .. والنص صريح : « لا عدوى ولا هامة ، ولا طيرة ولا صفر » .

عتبة : [يعارضه] .. وما تقول فيما فعله عمر ؟ .

بو محمد : وما تقول أنت فى هذا النص ؟ .

عتبة : أقول ما قاله الصدر الأول : « لا عدوى مؤثرة بنفسها »

[وترتفع أصواتهم ما بين موافق ومعترض] .

أبو أسامة : [مقبلاً عليهم . يصيح بهم] .. يا قوم . يا قوم .

أبو محمد : أبو أسامة ! .

عتبة : ما وراءك يا أبا أسامة .

أبو أسامة : اسمعوا هذا واتركوا هذا .

أبو محمد : ماذا ؟ .

أبو أسامة : لقد رصد الأمير جنوده على أفواه الطرق . يمنعون من فى البصرة من الخروج منها . ويمنعون القادمين من الدخول إليها .

مرة : [فى غضب] .. إذن فقد حبسنا الأمير مع الطاعون فى هذا البلد .

أبو أسامة : حتى لا ينتشر الطاعون .

عتبة : أو يقضى الله أمرًا كان مفعولا .

أبو أسامة : [يهمس لعتبة] عتبة .

عتبة : ماذا ؟ .

أبو أسامة : انظر ، أليس هذا عبد الله .

عتبة : [وهو يتجه بنظره نحو إشارته] .. بلى .

وهؤلاء بناته يمشين وراءه على استحياء .
[ثم يتركه ويسرع إلى عبد الله وهو يقول] ..
يا إلهى . إنه يتهالك على نفسه .
[ويقبل على عبد الله قائلا] .. عبد الله
عبد الله .

عبد الله : [فى إعياء] .. آه . .
عتبة : ماذا أصابك يا عبد الله .
عبد الله : [فى غاية الألم] .. عتبة .
عتبة : ما بك يا عبد الله .
عبد الله : [فى ألم مكتوم] .. لا شىء .

[ثم يتنهد ويقول] .. هيه ، الأمر لصاحب
الأمر .

عتبة : وأولاء بناتُكَ يا عبد الله ؟ .
عبد الله : أجل يا عتبة .
عتبة : ما شاء الله لقد كبرن يا عبد الله .
عبد الله : [فى ألم مكتوم] .. كبرن وكبرن الزمان يا عتبة .
عتبة : [يهون عليه] .. لا حيلة فى الرزق .
عبد الله : ولا شفاعة فى الموت .
عتبة : ولكن من أين ؟ وإلى أين يا عبد الله ؟ .

عبد الله : [فى تردد وارتباك] .. لقد كنت .. أردت .. ! .. أقصد

[ثم يقطع كلامه ويلتفت إلى بناته قائلا] .. أسماء .

أسماء : أبى .

عبد الله : خذى أختيك وانطلقى بهما بعيدًا أكلم عمكن فيما لا ينبغى لكن أن تسمعن .

أسماء : [وهى تنطلق] تعالى يا سكينة .

سكينة : تعالى عائشة .

عبد الله : [فى ألم مكتوم] . هيه .

عتبة : تجلد عبد الله .

عبد الله : لقد جهدتنا الشدة يا عتبة . وكان الأمير عيسى ظلا فانحسر الظل .

عتبة : رحم الله الأمير . ولك طول البقاء .

عبد الله : [فى مرارة] .. البقاء ! .

لقد تركت أم البنات يأكلها الجوع . ويفترسها الطاعون . وخرجت أبيع بناتى .. أبيع بناتى .

عتبة : [مستنكرًا] . . تبيع بناتك ؟ ! .

عبد الله : فى لحظة من لحظات اليأس قد يفكر الإنسان فيما لا يقدم عليه إنسان .

عتبة : [أشد استنكارًا] . .. تبيع بناتك يا رجل ؟ ! .

عبد الله : [بصوت يتهدج] . . قلت أمسكُ عليهنَّ الحياة .

عتبة : أيّ حياة يا رجل .. حياة الذل والعبودية ؟ .

عبد الله : وماذا أصنع يا عتبة . ؟
إذا أبقيتهُن هلكن جوعًا . وإذا بعتهن هلكن ذلًّا .
ماذا أصنع يا عتبة .

عتبة : [متخوفًا] . .. وأين الرابعة ؟ .

عبد الله : [بصوت مختنق] . .. الرابعة . .

عتبة : [وقد ازداد شكه] . .. أتراك بعتها ؟ .

عبد الله : بل تركتها فى خدمة أمها المريضة وخرجت بهؤلاء .. وليتنى وجدت من يشترى .

عتبة : عهدى بك غير هذا يا عبد الله .. لا يا رجل .
[ويخلع قباءه وهو يقول] . ليس هذا طريقك .

عبد الله : ماذا تصنع يا عتبة ؟ .

عتبة : [وهو يقدم له القباء] . .. خذ .

عبد الله : ماذا ؟ .

عتبة : خذه . وارجع ببناتك عبد الله .

عبد الله : ما هذا يا عتبة .

عتبة : هذا قبائى . ولو كنت أملك غيره لقدمته لك .

عبد الله : تقدمه لى .

عتبة : خذه فإنه يساوى شيئًا . ويسدُّ حاجة .

عبد الله : لا يا أخى . أمْسِكْ عليك قباءك . أنت فقير مثلى .

عتبة : ولكنى لست فى مثل حاجتك . هيا عبد الله .
[ثم ينادى] . يا أسماء . يا أسماء .

عبد الله : و .. ماذا ؟ .

أسماء : [مقبلة عليه] . لبيك يا عماه .

عبد الله : عتبة .

عتبة : ارجع ببناتك عبد الله . واعلم أن الذى خلق عباده لا ينساهم .

عبد الله : [بصوت يتهدج] . .. آمنت بالله .

سكينة : [مقبلة مع أختها] . .. أبى .

عبد الله : خذى بيدى يا ابنتى
[وينطلق مع بناته وهو يقول] . يا ما أنت كريم يا كريم ، ياما أنت رحيم يا رحيم .. يا لطيف .. يا لطيف .

على فراش الموت

وعلى فراش الموت كانت ترقد أمة الله وقد اشتدت عليها وطأة الطاعون . وبجانب منامتها ركعت وهى تجهش بالبكاء .

رابعة : [تبكى] .

أمة الله : [على فراش الموت] . .. لا . لا تبكى . يا ابنتى . يكفى . ما أنا فيه يا رابعة . .

رابعة : [من خلال دموعها] . ..بروحى أنت يا أماه .

أمة الله : [بصوت يرتعش] . .. ابنتى .

رابعة : [بصوت مختنق] . .. مرض .. ومجاعة .

أمة الله : الـ . حمد . لله .

رابعة : أماه .. ألا تخبريننى أين ذهب أبى بأخواتى .

أمة الله : [تخفى عنها الحقيقة] . .. ذهب . إلى الـ . أمير عيسى زاذان .

رابعة : [وتنفجر باكية] . .. لا يا أماه . أنت تخفين عنى الحقيقة .
لقد مات الأمير بالطاعون منذ أيام .

أمة الله : [تبكى] . .. ابنتى .

رابعة : أين أخواتى . أين أخواتى .

أمة الله : لا تفكرى فى هذا يا رابعة .

رابعة : [بصوت مختنق] . .. أخواتى . أخواتى .

أمة الله : اسكتى . اسكتى بالله يا ابنتى .

[ويفتح الباب ويدخل عبد الله منهارًا]

رابعة : إنه أبى .

أمة الله : لعله جاءكم بما تتبلغون به .

عبد الله : [داخلًا وهو محطم] . .. آه .. يارب .

أمة الله : عبد الله .

عبد الله : [فى غاية الحزن] .. كيف حالك الآن يا أم البنات .

أمة الله : [بصوت متقطع] . .. أقضيها من عمرى ساعات .. إنه الطاعون يا عبد الله .

عبد الله : ... .. .

أمة الله : وأين البنات يا عبد الله ؟ .

عبد الله : إنهن ورائى .

لم أجد من يشتريهن يا أمة الله .

رابعة : [تشهق من الفزع] . وكنت تريد بيعهن يا أبي ؟! .

عبد الله : [وكأنه يكلم نفسه] . ليتنى استطعت .. إذن لأبقيت عليهن الحياة .. ولكنى كنت مخطئا .. الناس فى البصرة يبحثون اليوم عن اللقمة ولا ينظرون إلى الجوارى .

البنات : [داخلات] . أماه . أماه .

رابعة : أسماء . سكينة . عائشة .

أمة الله : [بصوت مبحوح] . عبد الله .

عبد الله : [يتهالك على نفسه قائلا] . . أمة الله . أمة الله .

البنات : أبى .

عبد الله : إن قدمىّ لا تحملان جسمى .. آه .

رابعة : [صارخة] . وأنت الآخر يا أبى .

عبد الله : [بصوت مبحوح] . اسندينى يا ابنتى .. أولادى أولادى .

رابعة : [صارخة] . .. أبى وأمى .

البنات : [بكاء] . .

الشّاردة

وخرجت البنات شاردات . وتفرقت بهن
السبل . وهامت رابعة على وجهها حزينة
وفى يدها ناى تتنفس فيه أحزانها .

رابعة : [يغلبها البكاء فترفع الناى وتتجه إلى السماء] .
غريبة الدار .
يتيمة الأبوين .
إذا أمسيت لا أدرى أين أصبح . وإذا أصبحت
لا أدرى أين أمسى .
واقلباه .
إلى أين يا رباه
[ثم تغنى وهى تبكى غناء حزينا]
لـغـيـرك مـا مـددتُ يَـدا
وغَـيْـرُكَ لا يَـفِـيضُ نَـدى[1]

---

(١) موسيقى وألحان كمال الطويل . وغناء أم كلثوم .

وليس يَضِيقُ بابُكَ بِي
فكيف تَرُدُّ مَنْ قصدَا
وركنُكَ لم يزل صَمَدا
فكيف تَذُودُ مَنْ وَرَدا
ولطفُكَ يا خفيَّ اللُّطْـ
ـفِ إِنْ عَادِى الزمانِ عَدَا

* * *

على قلبى وضعتُ يَدَا
ونَحْوَكَ قد مددتُ يَدَا
سَرَى ليلى بغير هُدَى
ولَا أدْرِى لِأىٍّ مَدَى
يُطارِدُنى الأَسَى أَبَدًا
ويَرْعانِى الجوَى أَبَدَا
وَينْشُرُنى الهوَى رُوحًا
ويَطْوِينى الهوَى جَسَدا
وأَطْوِى البيدَ طاوية
كأنى فى الفضاء صَدَى

* * *

نهارى والهجيرُ لظًّى
وليلى والظلامُ رَدَى

فَـوا كـبـدا إذا أَمْـسِـى
وإنْ أضْـحِـى فـواكـبـدا
ولـيس سـواكَ لِى سـنـدٌ
فـقـدتُ الأهْـلَ والسَّـنَـدا
فـقـدتُ الأهـلَ والـسـنـدا
(وتـنـفـجـر بـاكـيـة)

عمار : [صاحب الحانة الذى كان يمشى وراء أنغامها فى الصحراء وهى لا تشعر به] . مرحى . مرحى .

رابعة : [تشهق من الرعب وقد فوجئت به] .

عمار : [يضحك] .

رابعة : [بصوت يتهدج] . .. من أنت بحق السماء ؟ .

عمار : [وقد استرعى نظره جمالها .. إلى جمال صوتها] . بل من أنتِ يا .. يا جنية الصحراء .

رابعة : انْشَقتْ عنك الأرض أم هبطت من السماء .

عمار : بل أنا وراءك منذ ساعة . وأنت مع هذه الأنغام . سابحة لا تحسين وَقْع الأقدام .. وتسألينى من أنا ؟ .

رابعة : [فى خوف] . .. وما شأنك بى يرحمك الله .

عمار : [يواصل كلامه] . .. فتاة تمشى وحدها فى

البيداء .. لا أنيس لها غير هذا الناى الباكى .
وهذا الغناء الحزين .

رابعة : [وهى تبكى] . . دعنى لشأنى . دعنى .

عمار : لا . لا تجزعى يا صغيرتى . إن هاتين العينين لم تُخْلَقا للبكاء .

رابعة : [تبكى] . .

عمار : وهذه الأنغام السماوية .

رابعة : [تبكى] . .

عمار : [ويداعب خدها بيده قائلاً] . .. ياتبارك الخلّاق . ما أصبح وما أملح .

رابعة : [من خلال دموعها] . .. دعنى لا تلمسنى دعنى .

عمار : لا تخافى يا صغيرتى .

رابعة : اتركنى . اتركنى .

عمار : أنت - أنت يا صغيرتى .

رابعة : [من خلال دموعها] . . غريبة الدار .. يتيمة الأبوين .. أرسف فى قيود الذل والهوان .

عمار : لا تراعى ياصغيرتى .. إن جمالك هذا يُجَنِّبُكِ كلَّ هَوان .. و

[ثم يستدرك قائلاً] . ولكن . ما هذا الناى . ؟ .

رابعة : إنه سلوة المحزون .

عمار : وما هذا الغناء ؟ .

رابعة : إنه غلالة المهموم .

عمار : ومن علّمك هذه الأنغام يا جميلتى ؟ .

رابعة : علمنى إياها سُهْد الليل وهَمُّ النهار .

عمار : [مأخوذا بجمالها ومنطقها] .. لا لا . أنتِ يا .. ما اسمك يا صغيرتى ؟ .

رابعة : اسمى رابعة .

عمار : [ينفجر ضاحكًا] . . رابعة .. إذن فأين الثالثة وأين الثانية وأين الأولى .

رابعة : إنك لا تهزل .

نحن أربع يتيمات .. مات أبوانا فى الطاعون الذى دهم البلاد .

ولما اشتدت المجاعة بالبصرة وقحط الناس خرجنا نلتمس الحياة ، وتفرقت بنا السبل . فَهِمْتُ على وجهى لا أعرف أين أمسى ولا أعرف أين أصبح .

عمار : حَسَنٌ. لقد وَصَلْتِ يا جميلتى .

ولكنى أعجب . كيف نجت الشاةُ من ذئاب الصحراء .
[ثم وهو مبهور بجمالها] . . يا لله ! ما هذا ؟ .

رابعة : ماذا ؟ .

عمار : [وهو يلتهمها بعينيه] . طلعةٌ كالصبح إذا أسفر .. وشعرٌ كالليل إذا أظلم . وصوت كالـ . كيف أَصِفُ صوتَكِ يا .. يا رابعة .

[ثم يهمس لنفسه] . .. لقد وَقَعْتُ على صيدٍ سمين .

[ثم يقبل عليها قائلا] . . أَقْبِلِي .. أقبلى .

رابعة : كلا . كلا دعنى .

عمار : لا تراعى يا صغيرتى .

رابعة : دعنى . دعنى .

عمار : أيها الغزال النافر .

رابعة : أستحلفك بالـ .

عمار : [يقاطعها] . .. لا . لا تخافى يا صغيرتى . أنا لا أريد بك سوءًا .. ولا أريد لك إلا الخير .. أَدْبِرِى .

رابعة : دعنى بالله .

عمار : حَسَنٌ حسنٌ . ستكونين قَيْنَةً تتحاكى بها حاناتُ الأُبُلَّة ..

اسمك إذن رابعة ؟ .

رابعة : أجل يا سيدى .

عمار : فما ولاؤك ؟ .

رابعة : ولائى لآل عتبك .

عمار : أى بطونهم ؟ .

رابعة : بنو عَدْوَه .

عمار : إذن فأنت عدويَّة ؟ .

رابعة : أجل يا سيدى .

عمار : هذا جميل .

رابعة العدوية اسم جميل . ومُسَمى أجمل .. تعالَىْ تعالى .

رابعة : لا . لا اتركنى لشأنى .

عمار : لا تكونى حمقاء .. إنما أَنْتَشِلُكِ مما أنتِ فيه .. تعالى معى .

رابعة : [فى خوف] .. إلى أين ؟ .

عمار : إلى حيث الذهب .

رابعة : الذهب . ! .

عمار : والحرير والديباج . هيا يا رابعة .

رابعة : [فى حيرة] . .. ياربى .

عمار : [وهو ينطلق بها] . بهذا الصوت الساحر .. وبهذا الجمال النادر .. سأصنع منك شيئا يملأ ليالى الأبُلَّة .

هيًّا يا رابعة . ها ها ها .

أوحَالٌ

وعرف عمار كيف يجعل من هذه الشاردة اليتيمة قَيْنَةً تتحاكى بها ليالى الأُبُلَّة .

وتسامع الناس بهذه الشادية فتواكبوا على حانة عمار . وأقبلت عليه الدنيا . وأصبحت عازفة الناى الشادية حديثًا تسرى به الركبان .

وازدحمت الحانة بعاشق اللهو والطرب . وجلس القوم فى انتظار الجارية المغنية بينما يصل إلى أسماعهم صوت نايها المحزون .

(رُوّاد الحانة يضحكون ويصخبون) .

حمزة : كأسك يا أبا حرام .

هشام : [وهو يرفع كأسه] اشرب .

حمزة : على صحتك .

[ويعلو صوت الناى] .

حمزة : [مشيرًا إلى صوت النـاى] .. أتسمع ياأبا حرام .

أبو حرام : ذلك هو الناى .

هشام : إنها هى . هى والله .. ولأنْ ترى خير من أن تسمع .

أبو حرام : إن أنغامها تلمس قلبى ياهشام .

هشام : المهم المغنى وليس الغناء [يشير إلى جمالها] .

أبو حرام : [معترضًا] .. بل الغناء .

هشام : [فى إصرار] .. بل المغنى .

أبو حرام : بل الغناء .

هشام : بل المغنى .

أبو حرام : [يلزمه الحجة] .. أنت تطلب الصهباء . أم تطلب الوعاء ؟ .

حمزة : [يضحك] .

هشام : [يحتكـم إليـه] .. الـغنـاء أم المـغنى ياأخا تميم ؟ .

حمزة : [وفى صوته لون الضحك] .. إذا وُجد الغناء وُجد المغنى .

حرام : [محتدًّا] .. وقد يوجد المغنى ولا يوجد الغناء .

حمزة : [يضحك] .

عمار : [مقبلًا يحمل أوانى الشراب] .. ياسادة . ياسادة .

حمزة : أين أنت ياعمار .

و حرام : وأين قَيْنَتُكَ التى يتواصفها الشعراء .

عمار : رابعة .

هشام : أين رابعة ياعمار .

عمارَ : آ . صبرًا ياسادة . إنها تتهيأ لمجلسكم .

هشام : [فى ضيق] .. ولكنها تعزف نايها ياعمار .

عمار : [مرتبكًا] .. آ . معذرةً ياسادة .

[ثم ينادى] .. يارابعة .. رابعة .

[يسكت صوت الناى] .

عمار : أقدمى رابعة فقد مَلَّ الشَّرْبُ الانتظار .

رابعة : [مقبلة عليهم تقول فى لطف ودلال] .. ولكن الانتظار تشويق .

حمزة : [مأخوذًا بجمالها] .. رابعة .

أبو حرام : ياتبارك الرحمن .

رابعة : [وهى تتضاحك] عموا مساءً ياسادة .

هشام : نعمت مساءً يارابعة .

أبو حرام : [معترضًا عليه] .. إنها ليست رابعة .. إنها رائعة .

رابعة : [تضحك] .

هشام : [يشير إلى مقعد] .. تفضلى .

أبو حرام : لا . لا والله .. إن مكانك فى الصدر يا رابعة .

هشام : [ينظر أمامها] .. بل مكانها القلب يا أبا حرام .

أبو حرام : [يفحمه قائلًا] .. أردت صدر المجلس يا لُكَع . ها ها .

رابعة : [تضحك معه] .

حمزة : ياعمار .

عمار : [الذى كان يشاركهم فى الضحك] سيدى .

أبو حرام : هات أجود أنبذة الأبلة .

حمزة : وتَخَيَّرْ وَاذْبَحْ .

هشام : وخذْ جيادَنا إلى علائقها فما أظن أننا مغادرو هذه الحانة .

رابعة : [تضحك] .

حمزة : [وهو يقدم لها الكأس] .. كأسك يارابعة .

هشام : [وهو يرفع كأسه] .. اشرب على وجهها .

أبو حرام : بل نشرب على صوتها .. .
حمزة : [متضاحكًا] .. اشربْ على خدها .
عمار : [يتدخل قائلًا وهو يضحك ضحكة باهتة] .. اشربْ على كلها . هاها .
هشام : [يزجزه فى ترفع وكبرياء] .. اُسكتْ أنت يارجل .
عمار : [متراجعًا] سكتُّ . هه .
رابعة : [تضحك] .
هشام : [يقترح حلًّا] .. نسأل رابعة .
أبو حرام : جميل .. جميل .

[ثم يلتفت إلى رابعة قائلا] .. أىَّ نَخْبٍ تقترحين يارابعة .

رابعة : تسألوننى أنا .؟ .
أصوات : نعم . نعم .
رابعة : وتقبلون حكمى .؟ .
الجميع : نعم . نعم .
رابعة : إذن فلنشرب على الناى .
أبو حرام : [ضاحكًا] نشرب على الناى .
هشام : [فى طرب] .. أىّ نخب جميل .

حمزة : [وهو يرفع كأسه] فلنشرب على الناى . [ثم يستدرك بسرعة] .. ولكن أتُسْمِعِيننا يارابعة .؟ .

رابعة : [فى لطف ودلال] .. كلا .

أبو حرام : [بلهجة الاستنكار] .. كلا .؟! .

رابعة : [فى دلال] ..آ .

أبو حرام : كيف يارابعة .

رابعة : [فى دلال] .. هذا شىء . وهذا شىء .

هشام : [يحاول إغراءها] .. وإذا أجزلنا لك العطاء .

رابعة : [فى إباء يشوبه دلال] .. أنا ياسيدى لا أبيع الغناء .

أبو حرام : [يقبل عليها قائلًا] .. وبالرجاء ؟ .

رابعة : إذا كنتم تحسنون الاستماع .

حمزة : أجل نُحسنُ الاستماع .. سكوتًا ياقوم .

أبو حرام : إيه رابعة . إنما نسمعك القلوب والأرواح .

رابعة : [تشير إلى العازفين . فيبدأ العزف .. وتبدأ هى الغناء]

يا صُحْبة الراحِ أهْلُ الراحِ هل حانُوا[1]؟

---

(١) الموسيقى واللحن لرياض السنباطى . والغناء لأم كلثوم .

وهـل تَغنَّتْ عـلى أيَّـامِهـا الحـانُ
صَبَـا النَّدامى ومـا فى الحانِ ألْحـانُ

الجميع : آ .

أبو حرام : والحرباه .

رابعة : فى كأسِ عمرى بقايا مَنْ يُشاربنى
ومَنْ يُطارحـنى والعيشُ ريحـان .

الجميع : آ .

هشام : ما سمعت كاليوم لحنًا أشجى .

أبو حرام : ولا نغمًا أطرب .. هيه رابعة .

رابعة : ثُمالةٌ من دموع الشَّجْو ألوانُ
إبريقها راحَ يبكى وهو فرحان
ثُمالة آهِ لو فاضَتْ .. وآهِ إذا
غاضَتْ ..ووَاها لها والقلبُ لهْفَان
عَهْدِى بها وكئوسُ الصفو مُتْرَعةٌ
بهنَّ طافَ على السَّكْرَى سُكَيْرانُ
لا يشرب الراحَ إلَّا أَنه ثَمِلٌ
نشوانُ والكاسُ فى كَفَّيْهِ نشوانُ
تُرى قعودُ الليالى والهوى معنا
ياغُرْبَةَ الكاسِ ما للكاسِ نُدْمانُ .

هشام : [صارخًا من شدةالطرب] .. آ .

أبو حرام : [يقبـل عليه مستنكـرًا] .. ما هـذا .. يا هذا .؟ .

هشام : [فى غاية الطرب] .. ألست ياأبا حرام .

أبو حرام : أسمع ماذا يامُنْكَرَ الصوت .

هشام : أنا منكر الصوت يا .. يا .. يا .

حمزة : [يكمل له الكلام] .. ياأخى اسكت .

رابعة : [تضحك والجميع يضحكون] .

أبو حرام : [يتوعده] .. والله .. والله .

حمزة : [يقاطعه] كفى ياأبا حرام .. عَوْدٌ إلى الغناء . [ثم يقبل على رابعة قائلا] نعم . نعم ياروح روحى .

أبو حرام : مِنَ الأوّل .

هشام : ثمالةٌ .

رابعة : [تغنى] .. ثمالةٌ من دموع الشَّجْو ألوانُ .

هشام : [فى أثناء غنائها] .. آه .

أبو حرام : [يسكته] .. اسكت .

هشام : اسكت أنت .

حمزة : اسكت أنت وهو .

هشام : [صائحًا] .. وأنت أيضًا .

حمزة : وأنا .

الجميع : [يضحكون] .

رابعة : [تقطع غناءها وتنهض وقد ضايقتها مقاطعتهم] .

أبو حرام : الله ! رابعة .

حمزة : إلى أين يارابعة .

رابعة : [فى سخرية] يظهر أن السادة يُجيدون الاستماعَ أكثر من اللازم .. عِمُوا مساءً ياسادة .

هشام : [وهو يمسك يدها فى عنف] .. بل انتظرى رابعة .

رابعة : [متألمة] .. أىْ يدى .

أبو حرام : [فى غضب] .. دَعْها ياهشام .

هشام : وفيم ضربنا أكباد الإبل .. اجلسى .

رابعة : [متألمة] .. أىْ يَدِى . يدى .

هشام : [مع سورة الخمر] .. أُحِبُّ الشاردَ من الغزلان .

رابعة : دَعْني . دعنى أيها المخمور .. كفي كفى .. .

أبو حرام : [وقد أخذته سورةالخمر] .. أقولُ لكَ دَعْها ياهشام .

هشام : [يتحداه] .. وإذا لم أَدَعْها .

أبو حرام : [غاضبًا] .. بل ستفعلُ وأنت راغم .

هشام : [فى غضب] .. أكذا تكلمنى ياأبا حرام [ويترك يد رابعة وهو يقول لها] اذهبى أنت

أبو حرام : [وهو يتقدم إليه] .. ياعريض القفا .

هشام : ياطويل الأذنين .

أبو حرام : [وهو يستل سيفه] .. مكانَكَ أيها المخمور

هشام : [صائحاً] سيوفكُم ياآلَ هشام .

أبو حرام : سيوفَكُمْ ياآل ظالم .

عمار : [مقبلا يجرى وهو يصيح فى وسط الضجة] ياسادة . ياسادة . اغمدوا سيوفكم .

حمزة : ابتعد أنت يارجل .

عمار : بالله لا تخربوا بيتى .. اغمدوا سيوفكم اغمدوا سيوفكم .

يقظة

وانطلقت رابعة إلى حجرتها وأسرعت
إليها خادمها عبدة وقد ملأها الرعب مما
كان . والخوف مما سيكون .

عبدة : [داخلة تلهث] .. ماذا فعلت ياسيدتى .. لقد
انقلبت الحانة رأسًا على عقب .

رابعة : [وهى تقاوم انفعالاتها] .. عبدة .

عبدة : لن يغفر لك سيدى مافعلت اليوم .

رابعة : ولن أغفر لنفسى ما أفعل .. لقد مللت هذه
الحياة ياعبدة . [ثائرة] .. أولئك السكارى .
ورائحة الخمر التي تفوح من أفواههم ..
والفجور الذى يطل من أعينهم .
لا ياعبدة . لا .. لا .
لن أكون شاة عند عمار .

عبدة : ولكن سيدى لن .. .

رابعة : [تقاطعها] .. لقد ضاقت نفسى بسيدك الـ .

[ويفتح الباب ويدخل عمار ثائرًا] .

عبدة : عمار .

عمار : [فى غاية الغضب] .. وبعد يارابعة .

رابعة : ماذا تريد ياعمار .

عمار : أكذا علمتك منادمة القوم ياغانية .

رابعة : [ثائرة] .. لا ياعمار .. إنى أختنق .. أنا لا أطيق هذه الحياة ياعمار .

عمار : [يمنُّ عليها ويذكرها] .. وتطيقين التشرد فى الصحراء .؟! .

رابعة : [وصوتها مختنق] ليتك تركتنى فى الصحراء ألاقى مصيرًا غير هذا المصير . .

عمار : [فى شىء من السخرية] .. ولا يرضيك ما صرت إليه يارابعة ؟ .

رابعة : أفٍّ لك ياعمار .. وأفٍّ لهؤلاء السكارى .. الخداع الذى أعيش فيه .
كلا . أنا لا أطيق أن أتودَّد إلى من لا أودّ . .

عمار : [فى سخرية] .. كأنك تتألهين ياابنة الليل .

رابعة : [باكية] .. الليل . والظلام .

عمار : لا أدرى – والله – ماذا أصاب رابعة .

رابعة : أصابنى أن المخمور قد يفيق ياعمار .

عمار : [فى سخرية] .. وأفقتِ يارابعة .

رابعة : أجل ياعمار .. وسأغنى عندما أريد . وأمسك
عن الغناء عندما أريد ..
ومن الآن . إذا غنيت فلا شراب .

عمار : أهى ثورة يارابعة .

رابعة : [ثائرة] .. أجل . على نفسى . وعليك .
وعلى ظروفى وما انتهيت إليه ياعمار .

عمار : [فى غاية الغيظ] .. وَهِمْتِ رابعة . أنت هنا
ملكى وصنع يدى .

رابعة : [منفعلة] .. بل أنا ملك نفسى . وصنع ربى ..
ولن أرضى بهذا السجن أبدًا .

عمار : لن تفرى من هذا القفص الذهبى .

رابعة : [فى إصرار] .. بل سأحطمه إذا اضطررت .

عمار : [ثائرًا] .. بل أنا الذى سأحطمه على رأسك
يافاجرة .

رابعة : [صارخة] .. عمار .

عمار : [وهو يخرج غاضبًا].. سترين .. سترين يارابعة .

[ويصفق الباب وراءه بعنف]

مراحل

كان « ابن زياد » فاتكًا تداريه مكانته في قومه . وكانت له ثلة يجمعهم اللهو والشراب .

كانوا وجوهًا سمعوا برايعة . وما انتهت إليه حانة عمار .

لا يستطيعون لمكانتهم أن يذهبوا إليها .
ولا يستطيعون لمجانتهم أن يمتنعوا عنها .

[ونحن الآن في مجلس ابن زياد مع رفاقه وندمائه]

الجميع : [يضحكون] .

ابن زياد : [وفي صوته لون الضحك] .. أعرف هذا ياورد .. لقد سمعت بها من أول يوم .

ورد : ولكن ليس من يرى كمن يسمع ياابن زياد .

ابن زياد : أعرف هذا أيضًا ياورد .

ورد : إذن فما يمنعك أن ننتقل إلى حانة عمار .؟ .

ابن زياد : ولماذا لا تنتقل حانة عمار إلينا ؟ .

الجميع : [يتضاحكون] .

علقمة : ماذا تقول ياابن زياد .

ابن زياد : أقول ما سمعت ياعلقمة .

ورد : [وفى صوته لون الضحك] تنتقل حانة عمار إلينا .؟! .

ابن زياد : نعم . إذ لا يصح أن ننتقل نحن إليها .

ورد : ولكنها رابعة .

ابن زياد : [فى كبرياء] .. وأنا ابن زياد ياورد .

علقمة : [متضاحكًا] .. بَرِئتُ من الذِّمة إن كنتُ قد فهمت شيئًا .

ابن زياد : ستفهمون كل شىء .

ورد : متى ياابن زياد .؟ .

ابن زياد : [ضاحكًا] .. عندما ترون كل شىء .

الجميع : [يضحكون] .

علقمة : [وفى صوته لون الضحك] .. أنتِ اليوم مُغْرِب ياابن زياد .. مُرْ لنا بالقِداح .

ابن زياد : أتقامروننى ياقوم ؟

علقمة : ألست تريد ياابن زياد .؟ .

ابن زياد : بلى . وأنا قميرك ياعلقمة . [ثم ينادى] .. يامبروك .. مبروك .

مبروك : [داخلاً] .. مولاى .

ابن زياد : هات القداح يامبروك .

[ثم يقبل على علقمة] .. دونك الحلبة ياعلقمة .

علقمة : [متضاحكًا] على أى شيء تقامرنى يا ابن زياد .؟ .

ابن زياد : على حانة عمار .

علقمة : [صائحًا] .. على حانة عمار .! هاها .

الجميع : [يضحكون] . .

على الطريق

فى حانة عمار . ورسل ابن زيا
يقتربون منها . وعمار على بابها .

مبروك : [وهو يقترب من الحانة] .. هذه حانة عما
يا مالك .
مالك : [وهو يشدُّ زمام جواده] .. وهذه علاماتها
ضجيج وصخب .
مبروك : وهذا عمار واقف على بابها يستقبل رُوَّادها .
الخادم : [يتقدم إليهما قائلا] .. سيدى .
مبروك : [وهو يترجل عن جواده] .. خذ جيادن
يافتى .
عمار : [مقبلا عليهما] .. يامرحبًا . يامرحبًا .
مبروك : كيف حالك اليوم ياعمار .

عمار : [دائم الشكوى] .. حال لا تسر . ولله الحمد على أى حال .

مالك : [متضاحكًا] .. الناس فى الحانة يكادون يطيرون من الطرب وأنت وحدك على بابها حزين .! .

عمار : [يتصنع الحزن] .. ذلك شأنى معها ياسيدى .

مبروك : كيف ياعمار .؟ .

عمار : وماذا تريد من رجل كثرتْ حُرَفَاؤُه . وقلَّ غَنَاؤه .

مبروك : [متضاحكا يقول بلهجة التعجيب] .. إذا كثر الحرفاء تقلُّ الأرباح .

مالك : [وفى صوته لون الضحك] .. منطقٌ عمار .

عمار : [وهو يتصنع الحزن] .. هيه . الشكوى لغير الله مذلّه .

[ويفتح لهما باب الحانة] .. تفضلا . تفضلا .

أبو حرام : [يندفع خارجًا من الحانة وهو غاضب] .

حمزة : [خارج وراءه يصيح به] .. انتظرْ انتظرْ أبا حرام .

عمار : ماذا جرى ؟ .

أبو حرام : لا والله . لن أغشى هذه الحانة بعد اليوم .

عمار : [يستوقفه] .. انتظر ياسيدى .

أبو حرام : دعنى ياعمار .

عمار : ماذا جرى ؟ .

أبو حرام : [فى غاية الغضب] .. أُرسل إليها فترفض أن تنزل إلىّ .! .

عمار : [يحاول أن يهدئ من ثائرته] .. هَوِّنْ عليك ياسيدى .

أبو حرام : وتأبى أن تشرب معى .! أنا .

عمار : مصيبتى فيها أنها لا تشرب . ولا تغنى على الشراب .

أبو حرام : [ساخرا] .. نعم . منذُ متى كان ذلك ياعمار ؟ .

عمار : منذ شهور .. أتذكر يوم معركة الحانة ياسيدى .

أبو حرام : ولكنها كانت تفعل .

عمار : كان ذلك فى أول عهدها بهذه الحانة .. أما الآن . وقد جعلت منها شيئًا آخر . فقد أصبحتْ شيئًا آخر .

أبو حرام : بل أنت الذى أصبحتَ شيئًا آخر .

[ويتركه وهو يقول] .. حرامٌ عليَّ حانتُك بعد اليوم ياعمار .

عمار : [يلاحقه قائلا] .. انتظر أبا حرام .. سيدى . سيدى .

[ثم يقول لنفسه].. تعسًا لك يارابعة .

مبروك : [وفى صوته لون الضحك] يظهر أن وَرْقَاءَك أصبحت صقرًا ياعمار .

عمار : أرأيت ياسيدى . أسمعت ياسيدى .

مالك : [فى سخرية خفيفة] .. مسكين ياعمار .

عمار : كان نحسًا ذلك اليوم الذى لقيتُ فيه رابعة .

مبروك : [داخلًا فى الموضوع] .. خلاص . نُريحك منها ياعمار .

عمار : ليتك تفعل ياسيدى .. إننى ضقت -والله- بأحوالها ..

هذا الحزن الذى لا أدرى له سببًا

ودموعها التى لا أجد لها تفسيرًا .

وامتناعها عن الشراب .

إنها تضحك وقلبها يبكى . ولا أدرى لماذا كل هذا .

مبروك : خلاص . نشتريها .

عمار : [وهو يظن أنهم غير جادين وأن المسألة مجرد كلام] .. أبوس رجلك .

مالك : وتبيعها ياعمار ؟ .

عمار : بتراب الفلوس .

مبروك : فكم أملت فيها يارجل .

عمار : [وهو يظن أنهم غير جادين] خذوها بتراب الفلوس .
أريحونى منها .. لقد - والله - ضقت بها .

مالك : [يهمس لمبروك وقد صدق عمارًا] يظهر أن مهمتنا أيسر مما كنا نتصور .

عمار : أنا فى خدمتكما .. تفضلا .

مبروك : [يخرج الصرة ويرمى بها إليه] .. خذ . خذ ياعمار .

عمار : [وقد وجد أن الأمر جد] .. أه ؟ .

مبروك : ماذا ؟ .

عمار : ماذا أنت ياسيدى ؟! .

مالك : هذا ثمن رابعة .

عمار : [فى جو المفاجأة] رابعة .

مبروك : إنه ليس تراب الفلوس .

مالك : إنه ذهب عين والزن ياعمار .

عمار : كأنكم تشترونها حقيقة ؟ .

مبروك : [وفى صوته لون الضحك] .. وكنت تظن أننا نشتريها مجازاً .؟ .

عمار : [مرتبكًا] .. ولكنى . أنا . أنا لا أبيعها ياسيدى .

مالك : ألست تشكو منها .

عمار : [وهو يضحك ضحكة باهتة] .. لقد كنتُ أهزل ياسيدى .
أتصدقون عمارًا .
أنا كذوب . هاهاها .

مالك : ولكنك ستبيعها .

مبروك : بل باعها بالفعل وقبض ثمنها .

عمار : لا – لا –إننى أبيعُ أولادى ولا أبيعها .

مبروك : ولكنك بعتها ياعمار .

عمار : لن ترغمنى على ذلك .
[ويحاول أن يردّ إليه الصرة] .. خُذْ صرتك هذه ياسيدى .

مالك : أنت واهم ياعمار . إنه لا يشتريها لنفسه .

عمار : ولو ..

مالك : أتعرف لمن يشتريها ؟ .

عمار : أيًّا كان .. لن أبيعها ..
أبيع رابعة ! كيف ياسيدى .! .

مالك : أنت لا تعرف شيئًا ياعمار .. إنه يشتريها لمولاه .

عمار : ولو .

مالك : أتعرف من مولاه ؟ .

عمار : [بلهجة الاستخفاف] .. ومن يكون مولاه .

مالك : إنه ابن زياد .

عمار : [منهارًا] .. أه .. مَنْ .. إِبـ .. ابن زياد .

[ثم يصيح وهو فى قمة الانفعال] .. راحت رابعة . وضعت ياعمار .

مبروك : [متضاحكًا] .. ومع ذلك .. فسيعوضك سيدى عن ورقائك الذهبية كثيرًا ياعمار .
هيا بنا يامالك .

مالك : أمامنا ياعمار .

[وفى الحانة يرتفع الصخب وتعلو ضجة رواد الحانة] .

الجميع : [يتصايحون] :أين عمار . ياعمار النبيذ ياغلام .

الخادم : [يعلو صوته فى وسط الضجة] ياسادة . ياسادة ..
مَنْ كان أمامه كأس فَلْيَنْتَهِ منها .. ومَنْ كان أمامه شراب فَلْيرفعه إنها رابعة .
[وتنقطع الضجة ويبدأ عزف الجوقة الموسيقية] .

عمار : [يهمس فى حزن] .. انظر ياسيدى .. هكذا أدب الغناء صمت . ولا شراب .

الكورس : حانةُ الأقدار
عربدتْ فيها .. لياليها .
ودار النورْ .
والهوى صاحى
هذه الأزهارْ
كيف تسقيها .. وساقيها
بها مَخْمُورْ
كيف ياصاحِ .

رابعة : [تغنى] .. سألت عن الحب أهلَ الهوى[1] .
سُقَاةَ الدموعِ ندامى الجوى .

---

(١) الموسيقى واللحن : محمد الموجى .. والغناء : لأم كلثوم

فقالوا حَنانكِ من شَجْوِهِ
ومَنْ جِدّهِ بكِ أو لهوِهِ
ومِنْ كَدَرِ الليل أوصَفْوِهِ
سَلِي الطيرَ إن شئتِ عن شَدْوِهِ
ففى شدوِهِ لَمَساتُ الهَوى
وبَرْح الحَنينِ وشَرْحُ الجَوى

* * *

ورحتُ إلى الطير أشكو الهوى
وأسألُهُ سِرَّ ذاك الجوى
فقال حَنانَكِ مِنْ جَمْرِهِ
ومِنْ صَحْوِ ساقيه أو سكرِهِ
ومن نَهْيِه فيك أو أمْرِهِ
سَلِي الليلَ إنْ شئتِ عن سِرهِ
ففي الليل يُبْعَثُ أهْلُ الهوَى
وفى الليل يَكْمُنُ سِرُّ الجوى

* * *

ولما طوانى الدُّجَى والجوَى
لَقِيتُ الهَوى وعَرَفْتُ الهوى

فـفـى حـانـةِ الـلـيـل خَمَّـارُهُ
وتـلـك الـنُّـجَـيْـمـاتُ سُـمَّـارُهُ
وتحـت خِـيـامِ الـدُّجَـى نَـارُهُ
وهَمْسُ الـنَّـسَـائِـمِ أَسْـرَارُهُ
وفى كـل شـىء يـلوحُ الهـوى
ولـكـنْ لمـن ذاقَ طـعـمَ الهـوى

أمل

وكان صباح

فقد أرق عمار ولم ينم ليلته . وتردد فى الذهاب إلى رابعة ليفضى إليها بما كان . وتقع عينه على عبدة وهى مقبلة من ناحية حجرة رابعة .

عمار : [يستوقفها] .. عبدة .

عبدة : سيدى . عم صباحًا ياسيدى .

عمار : أين مولاتك ياعبدة .

عبدة : إنها فى حجرتها ياسيدى .

عمار : ألم تصحُ من نومها بعد . لقد انتصف النهار أو يكاد .

عبدة : بل قامت منذ ساعة . وخلت إلى أحزانها . وذلك شأنها فى هذه الأيام .

عمار : [بلهجة اليائس] .. خلاص . انتهت . ستريح وتستريح .

عبدة : [وهى تهم بالرجوع] .. هل تريد شيئًا ياسيدى .

عمار : انتظرى أنت . أنا ذاهب إليها بنفسى

[ويتجه إلى حجرة رابعة ويطرق بابها . ويفتح الباب ويدخل .]

[ويتجه إليها حزينًا] .. رابعة . رابعة .

رابعة : ... .. .

عمار : [فى ألم] . . ألا تردين علىّ يارابعة .

رابعة : [وهى تقاوم انفعالها] .. ماذا تريد ياعمار ؟ .

عمار : [فى ألم] أريد أن أقول إننى مضطر إلى بيعك يارابعة .

رابعة : وأى جديد فى هذا . إنك تبيعنى كل ليلة ياعمار .

عمار : [منهارًا] .. ولكنها النهاية يارابعة .

رابعة : [بصوت مختنق] حقًا .؟ متى ياعمار ؟ متى أخرج من هذا السجن البغيض ؟ .

عمار : [فى غاية الألم] وتسمينه سجنًا .؟ .

رابعة : وأىّ سجن ياعمار .

عمار : [فى أسف] إننى أبيعك مكرهًا يارابعة .

رابعة : ومتى ملكتني حتى تبيعنى .

عمار : [بصوت مختنق] .. إننى لا أملك نفسى ياابنتى .

رابعة : الآن صرت ابنتك ؟ .

عمار : ألم أنتشلك من الفقر والجوع .؟ .

رابعة : [فى مرارة] .. لتقدمنى طعامًا لكل نهم أكول .

عمار : بل جعلت منك وردة تتعطر بأريجها نسمات الأُبلّة .

رابعة : [ثائرة] .. ألا فاعلم ياعمار أن الوردة لها مكان آخر غير هذا التراب الذى مرغتني فيه .

عمار : [حزينًا] .. على أى حال . لقد خرج الأمر من يدى .. أنا مغلوب على أمرى يارابعة .
إنه مولى من آل زياد سمع بك فأرسل فى شرائك .
ولا قبل لى بردّه ولست أدرى ما .. .

رابعة : [تقاطعه] .. لأن يكون لى مولى واحد خير من أن أكون مولاة كل عربيد مخمور .

عمار : أنت قاسية فى حكمك على يارابعة .

رابعة : أكنت تحسب أنى راضية بما أنا فيه ياعمار .

عمار : ولكنى كنت أكرمك .

رابعة : كما يكرم الجزّار الشاة .

عمار : إنك لا تفهمين شيئًا يارابعة .

رابعة : ليتنى كنت كما تقول .. ليتنى كنت لا أفهم ياعمار .
إنه قضاء جرى وأيام أرجو ألا تعود .

عمار : ولكنك ستذكرين هذه الأيام .

رابعة : [فى ألم ومرارة] .. نعم سأذكرها كثيرًا .

عمار : وتندمين عليها .

رابعة : [من قلبها] كلّ الندم .

عمار : إنك تُحوِّرين الكلام فما لهذا أردت .

رابعة : ولكنى أريد .

عمار : لك ما تريدين .. ولكن اذكرى وأنت فى بيت ابن زياد . أننى أنا الذى رفعتك إليه .. فلولاى ما غنيت . ولولا غناؤك ما اشتهرت .. ولولا شهرتك ما ..
[ثم يقطع كلمته وقد رآهاتقوم وتتركه] .. الله .! رابعة . رابعة .

رابعة : [تخرج وتصفق الباب وراءها بعنف] .

ورجاء

واستقبلت رابعة الحياة فى بيت سيدها الجديد .

مبروك : [وهو يقودها] .. مِنْ هنا .
[ويفتح بابًا ويقول لها] .. هذه هى حجرتك يارابعة .. ألست ترينها جميلة .

رابعة : أجمل منها يامبروك أنني تركت حانة عمار . وتركت الليل والهوى .

مبروك : وستكونين سعيدة فى بيت مولاك الجديد .

رابعة : كلُّ السعادة .
[ثم تقول وقد رأته ينصرف] .. إلى أين يامبروك .

مبروك : انتظرى رابعة . لن أغيب كثيرًا ..
سأحضر لك ما أعَدَّهُ لك مولاى وهو شىء كبير .
[ويخرج ويغلق الباب وراءه]

رابعة : [وقد خلت بنفسها] .. بعدًا لك ياحانة عمار .
مرحبًا بالحياة النظيفة فى بيت سيدى .
اليوم لا خمر ولا سكارى .
لا خمر ولا سكارى .
[ثم بصوت يتهدج] . .. إلهى كما قَدَّرت لى أن
أخرج من ذُلّ المعصية . فَيَسِّرْ لى أن أدخل فى عِزّ
الطاعة . ياتواب .
ياتواب .
ياتواب .

فجيعة

واجتمع أصحاب ابن زياد فى قصره .
وقد جمعهم الشراب والقمار والطرب .
ووجدت السيدة رابعة أنها لم تبتعد كثيرًا
عن جوّ حانة عمار .

ابن زياد : [صائحًا] .. ياغلام . الكاس والطاس .
همام : [متضاحكًا] .. والله لو أنك جئتنا برابعة التى هى رابعة ما تطاولت هكذا ياابن زياد .
ابن زياد : [يفاجئهم] .. وإذا كانت .
علقمة : [فى دهشة] .. رابعة .
ابن زياد : [ضحكة خفيفة] .
ورد : [فى إعجاب] .. واشتريتها ياابن زياد .؟ .
ابن زياد : كان لابد من ذلك ياورد .

لا يجملُ بالمشيخة من آل زياد أن يذهبوا إلى حانة عمار .

علقمة : إذن سنسمع ياابن زياد .

ابن زياد : ونشربُ ياعلقمة .

همام : [فى إعجاب] .. يالك ياابن زياد .

ورد : أجل ما كان لنا أن ننتقل إلى حانة عمار .

ابن زياد : بل تنتقلِ حانة عمار إلينا .

علقمة : [متضاحكًا] .. ومثلك مَنْ يفعلها ياابن زياد .

ابن زياد : [ينادى] .. يامبروك . مبروك .

مبروك : [يتقدم قائلا] مولاى .

ابن زياد : رابعة يامبروك .

ورد : [يتضاحك] .

ابن زياد : [فى غاية النشوة] .. إنها اليوم هنا .. [ويرفع كأسه قائلًا] .. كأسك ياورد .

ورد : كأسك ياابن زياد .

مبروك : [داخلًا يتقدم رابعة] .. رابعة يامولاى .

ابن زياد : تعالى رابعة . أقدمى .

رابعة : [داخلة] .. سيدى الـ .

[ويقطع كلمتها وتشهق فى فزع وقد فوجئت بمجلس الشراب] هيه . وىْ .

ابن زياد : [وأصحابه يشاركونه فى الضحك من حركة خوفها] .. اجلسى .. اجلسى يارابعة .

رابعة : [بصوت يتهدج] .. ولكنى . لا أجد مكانى ياسيدى .

الجميع : [يضحكون فى طرب وسرور] .

ابن زياد : أتسمع ياورد .

ورد : اجلسى رابعة .

رابعة : [وقد فجعت فى جميع آمالها] .. سيدى .

ابن زياد : [الذى فهم أنها تتحرك من منادمتهم أمامه] .. لا عليكِ رابعة .. أولئك صحبى وللكاس بيننا حرمةٌ وذمام .

ورد : [وهو يقدم لها الكأس] .. كأسك يارابعة .

رابعة : [بصوت فيه لون البكاء] .. وهل بقى فى الكأس شراب .

ابن زياد : خذيها يارابعة .

رابعة : [متمنعة] .. سيدى .

ابن زياد : [آمراً] .. خذيها من يده .

رابعة : [فى غاية الحزن] .. وخمرٌ ياسيدى .. لقد كنت فى حانة عمار أغنى ولا شراب .

همام : [فى سخرية] .. ما هذا ياابن زياد .

يزيد : دعوها ياقوم . بالله لاتكرهوها على ما لا تريد .

علقمة : إذن فهو الغناء .

ابن زياد : [غاضبًا] .. بل الغناء والشراب .. رابعة كما نريد . ولسنا كما تريد رابعة .

رابعة : [حزينة] .. ليتنى كنت أستطيع ياسيدى .

ابن زياد : [فى غضبه] .. ومن يستطيع غيرك ياابنة الليل والهوى .

رابعة : [فى أسف وحزن] .. كنت يامولاى .

همام : [مقهقهًا] .. كانت هاهاها .

ابن زياد : [يسألها] .. وماذا جرى ؟ .

رابعة : جرى أننى تلمست فى بيتك أمنًا لروحى .

علقمة : وهل أنت خائفة ؟ .

رابعة : كل الخوف .

ابن زياد : مِمَّ رابعة ؟ .

رابعة : من نفسي يامولاى .

همام : [فى ضيق] .. حديث لن ينتهى .

ابن زياد : أى رابعة . لقد أطلتِ ، وماأظن أنك مفسدة علينا ليلتنا [ثم بلهجة الأمر] .. الكأس أولاً .

رابعة : [بصوت يتهدج] .. هيهات ياسيدى هيهات .

ابن زياد : [فى دهشة] .. ماذا ؟ .

علقمة : [ضاحكًا] امتناع هذا أم تمنع ؟ .

ابن زياد : [منفعلًا] .. رابعة – أقول لك اشربى .. أقول لك تمنى .. هل سمعت ؟ .

رابعة : [بصوت فيه لون البكاء].. كان ذلك ونحن على ضفاف الأبلة .

ابن زياد : [فى غيظ مكتوم] .. واليوم ؟ .

رابعة : اليوم نحن على ضفاف الأبد .

همام : [فى سخرية] .. كذا أيتها التاسكة الحَصان .

الجميع : [يتضاحكون] .

رابعة : [باكية] .. سيدى .

ابن زياد : [ثائرًا] .. هَلُوكٌ تتنزّه عن الشرب والغناء .

ورد : [متدخلا] ياقوم . ياقوم .

ابن زياد : ألهذا دفعت خمسمائة دينار .

رابعة : [بصوت يرتعش] .. اغفرلى ياسيدى .. أنت لا تعرف قلوب الغوانى .. نحنُ نحنّ إلى الحياة الشريفة حتى ونحن نتمرّغ فى الأوحال .
لقد حسبت أننى صالحت ربى حين طوانى بيتك وتركت حانة عمار .

بن زياد : بل تريدين أن ترجعى إلى السكارى هناك .

رابعة : [فى مرارة] .. وهل بعدت عن السكارى هنا .

ابن زياد : [يقاطعها غاضبًا وهو يصفعها] .. صَهْ .
رابعة : [ويدها على خدها] .. و .. وتصفعني ياسيدى .
ورد : [متألمًا لها] .. ما ضرَّ لو شاركتنا يارابعة .
رابعة : [وهى تبكى] .. ياأسفًا على ما فات .
همام : [فى ضيق] .. ألهذه المناحة دعوتنا ياابن زياد .
ابن زياد : أيتها الدُّمية اللعوب .
رابعة : إن شرابى اليوم دموع وغنائى نحيب .
ابن زياد : أهكذا تحكمين على نفسك .
رابعة : بل حكمت على نفسى .
ابن زياد : [بلهجة الوعيد] .. إذن فقد اخترت جزاءك

[ثم ينادى] .. يامبروك .. مبروك .

ورد : أتاتك ياابن زياد .
مبروك : [داخلًا] .. مولاى .
ابن زياد : أين سوطك يامبروك .
مبروك : فى خدمة مولاى .
ابن زياد : أريدك أن تروِّض هذه القطة .
ورد : رفقًا بالقوارير ياابن زياد .
ابن زياد : [صائحاً] .. عليك بها يامبروك .
مبروك : [وهو يسحبها] .. أمرك ياسيدى . تعالَىْ .
رابعة : [تبكى وهى خارجة مع مبروك] .
ابن زياد : [يشيعها قائلا] سأعلمك طاعة السادة ياهلوك .

فى بحار الندم

وفى محبسها انطوت رابعة على نفسها تبكى
وتناجى ربها فى قمة رياضتها الروحية .

رابعة : [وهى تبكى] .. إلهى وسيدى
أنا فى طريقى إليك . أخوض بحار الندم . فهل
أصل ياسيدى .
وإذا وصلت فهل تقبلنى
واغوثاه
كم من شهوة ذهبتْ لذتُها .. وبقيتْ تبعتها .
[ثم تبكى وتغنى] :
على عينى بكتْ عينى
على رُوحى جنتْ رُوحى
هواك وبُعْدُ ما بينى
وبينكَ سِرٌّ تَبْرِيحى

عـــلى عـيـبـنى

عـــلى روحـــى

فيـــاغـوثـاهُ يـاغـوثـاه

ومن طُولِ النَّوى أوَّاهْ

وآهٍ آهْ

* * *

صحـــا من شَجْـوِهِ كـأسِى

وقـــد نـــام الخَـلِيُّـونـا

فـكيـف أَفـرُّ مـن نـفـســى

إذا هـامَ الـمـحـبـونـا

عـــلى نفسى جنتْ نفسى

فـــيـاويـلاهُ يـــاويـــلاه

ومن طـول النَّوى أوّاهْ

وآهٍ آهْ

* * *

حـيـائـى مـنـك يُـبْـعـدنِى

وداعـى الـشـوق يَـدْعُـونى

وَوَجْهُ الصُّفْح يُخْجِلُنى
وَيَقْتُلنى ويُحْيِينى
وأيامى تُقاضينى
على ما كان ياأسفاهْ
ومن طُولِ النوى أوَّاه
وآه آه

* * *

خَلَوْتُ إليك ياربِّ
وقلتُ عساكَ تقبلُنى
فما بالى أرِى ذنبى
وأيامى تُطارِدُنى
مَدَدْتُ يدى فَخُذْ بِيَدِى
إليكَ ومنكَ ياربَّاهْ
ومن طول النَّوى أوَّاهْ
وآهٍ . آهْ

[ثم تنخرط فى بكاء شديد]
[وفى أثناء بكائها يفتح الباب ويدخل مبروك وفى
يده السوط]

مبروك : [فى غلظة] .. هيه .
رابعة : [من خلال دموعها] .. مبروك .
مبروك : [فى غلظة] .. ألا تزالين تبكين يارابعة .
رابعة : وهل أملكُ غير الدموع يامبروك .
مبروك : [بلهجة الوعيد] .. ألا تُطِيعِين سيدك يارابعة .
رابعة : [فى مرارة] .. ظننتُ أننى انتهيتُ من حانة عمار . فإذا بيتُ سيدى حانة أخرى .
مبروك : [فى غضب] .. أقول . هل تُطيعين سيدك يارابعة .
رابعة : [بصوت مختنق] .. أَشْرَبُ وأُغَنّى .؟! .
مبروك : وما يمنعك أن تفعلى .
رابعة : [فى إصرار] .. أَمَّا الشرابُ فقد علمتَ أَلَّا سبيل إليه .. وأما الغِناءُ . فلن أغنى لمخلوق بعد اليوم .
مبروك : وسيدك ؟ .
رابعة : إن لى سيدًا واحدًا ولن أغنى لسواه .
مبروك : [ثائرًا] .. أنت عنيدة . وأنا أشدُّ منك عنادًا . وسيدى أشدُّ منى ومنك .. وسوف أَنْصَبُّ عليكِ بالسَّوط هكذا [وهو يمشقها بسوطه] .
رابعة : [فى ألم مكتوم] .. آه .
مبروك : [وهو يمشقها بالسوط] .. كلَّ يوم .. هه .

رابعة : [تحاول أن تكتم آلامها] .. آه .

مبروك : هكذا .. هكذا .. هكذا .

رابعة : [فى صراخ مكتوم] .. آه ..آ .

وحدث ذات ليلة

وكانت رابعة فى محبسها تخوض بحار التجربة وتمارس رياضتها الروحية ، وهى تتواجد وتبكى وتغنى ، ووصل صوتها إلى سمع مبروك . فنظر من خصاص الباب فإذا قنديل يتحرك فوق رأسها ويتوهج . وهو غير معلق بشىء .

رابعة : [باكية] .. ياحبيبى .
سجا الليل . ونامت العيون
وسكنت الوحوش فى الفلاة . وهجعت الطيور فى
الأشجار .. وهدأت الأسماك فى البحار . وأنت
وحدك لا تنام . فكيف أنام ياحبيبى .
حبيبى :
يقولون لى غنى

لن أغنى لسواك
يعذبوننى
لا أحس غير هواك
[ويتهدج صوتها وهى تغنى]

* * *

غريبٌ على باب الرجاءِ طَريحُ
يناديك موصولَ الجوى وينوح
يهُون عذابُ الجسم . والروحُ سالم
فكيف وروحُ المستهامِ جريح
وأهواك لكنى أخافُ . وأستحِى
إذا قلت قلبى فى هواك جريحُ
طريقى إليك الوجْدُ والسهدُ والضّنا
ودمعٌ أدارى فى الهوى ويَبُوح
وليس الذى يشكو الصبابةَ عاشقًا
وما كلُّ باكٍ فى الغرامِ قَرِيحُ

* * *

يقولون لى : غنِّ وبالقلبِ لوعة
أغنى بها فى خلوتى وأنوحُ

ولى فى طـريق الشـوقِ والـليـلُ هـائمٌ
مـعـالمُ تَخْـفَـى تـارةً وتـلوحُ
ولى فى مقـامِ الـوَجْـدِ حـالٌ ولَـوْعَـةٌ
دمـوعـى غَبُـوقٌ عـنـدهـا وصَبُـوحُ
وأنـت وُجـودى فى شـهـودى وغـيـبـتى
وسـرُّك نُـورُ الـنـورِ أو هـو روحُ
ومـا رَحَـلَتْ إلا إلـيـكَ مـواجـدى
وداعـى الهـوى بـالـواهـين يـصـيـحُ
غـريبٌ عـلى بـابِ الـرجـاءِ طَـريـحُ
[وفجأة ينفتح الباب ويدخل مبروك باكيًا]

مبروك : [وهو داخل يقول بصوت يتهدج] .. رابعة .

رابعة : [تشهق .. وقد فوجئت به داخلاً فى هذه الساعة من الليل] .

مبروك : رابعة .

رابعة : [بصوت مختنق] .. مبروك .

مبروك : لا . لا تخافى يارابعة ..
لن أعذبك بعد اليوم .
ماذا كنت تقولين يرحمك الله .

رابعة : [بصوت يتهدج] .. أسمعت حديثى إلى سيدى .

مبروك : سمعت يارابعة .. ورأيت أيضا .

رابعة : واحرَّ قلباه .

مبروك : قومى رابعة .

رابعة : إلى أين يامبروك .

مبروك : قومى أساعدك على الفرار من عذاب مولاك .

رابعة : [وهى تبكى] .. وكيف أفِرُّ من عذاب نفسى يامبروك .

مبروك : لا . لا تبكى رابعة .

[ويرمى بالسوط وهو يقول] .. هذا هو السّوط . لن أمسَّكِ بسوءٍ بعد اليوم . وليذهبْ سيدى إلى الجحيم .

ابن زياد : [الذى سمع هو الآخر ورأى يدخل قائلا] .. ولكنه ذهب إلى الجنة .

مبروك : [وقد فوجئَ به] سـ .. سيـ .. سيدى .

ابن زياد : لا بأسَ عليكَ يامبروك .. لقد سمعت كما سمعت .

مبروك : و .. ورأيت القنديل ياسيدى .

ابن زياد : انهضْ يامبروك . إنى أعفو عنك .

[ويقبل على رابعة قائلًا] .. أما أنتِ يارابعة . فلست أدرِى كيف أُكَفِّر عن إساءتى إليك .. تعالَىْ ياابنتى ..

خُذْ بيدِها يامبروك .. .

طريق السالكين

وأنكر أصحاب ابن زياد وندمانه ما كان من أمره . فقد رأوه غير ما كان بالأمس ، وقد جفَّ مجلس الشراب ، وانطوى بساطه . فأقبلوا عليه لائمين ساخرين :

الجميع : [يضحكون وقد رأوه منصرفًا عن طريقهم] .

ابن زياد : [يراجعهم وهم يقاطعونه] .. لا . لا . أقسم لكم .

همام : [وفى صوته لون الضحك] .. اسمع ياابن زياد .. إنك هنا فى خَمَّارةِ الهوى لا تدرى بما يقال .

ابن زياد : أريد أن .

ورد : [يقاطعه ضاحكًا] .. ومتى كان للمحبين إرادة .

ابن زياد : صدقونى أننى لم ... ،

علقمة : [يقاطعه] وما يمنعك أن نرى .

ابن زياد : وهو كذلك .. سترون بأعينكم .
[ثم يصفق وهو ينادى] .. يامبروك .. مبروك

مبروك : [مقبلا عليه] .. سيدى .

ابن زياد : رابعة يامبروك .

مبروك : سيدتى رابعة .

همام : [ضاحكًا] .. سيدته .ا .

علقمة : [وهو يضحك معهم] .. لعلك قد جعلت منها سيدة بيتك ياابن زياد .

الجميع : [يضحكون] .

ابن زياد : ياقوم . ياقوم .
أُشهد الله أنى ما تأدبتُ كما أدَّبتْني هذه السيدة
[ثم يتدفق فى حديثه] .. قمتُ ليلة أتحسّسُ أمرها فسمعتها فى جوف الليل تدعو دعاءً انفطر له قلبى .. ثم سمعتها تغني غناءً كأنه يتنزل من السماء ونظرتُ من خَصاص الباب فما راعني إلا قنديل يضىء ويتحرك فوق رأسها وهو غير مُعلَّق بشىء

ورد : [بلهجة التعجب] .. سبحان الله .ا .

علقمة : [بلهجة الشك] .. أو كذا خيل إليك يا ابن زياد .

ابن زياد : بل كذا سمعت . وكذا رأيت . وإذا كَذَبَتْنى أذنى فلن تَكْذِبَنى عينى أبدا .

(ويفتح الباب ويدخل مبروك وهو يقود رابعة)

ابن زياد : رابعة .

رابعة : [تقبل عليه قائلة] لبيك يامولاه .

ابن زياد : تعالى يا ابنتى ..

علقمة : [فى سخرية] .. وتذهب فى تدليلها إلى هذا الحد .

همام : فكيف شُرْبُكَ معها .

رابعة : ومَنْ لى بأدب الشرابْ . وشهودُهُ غِيابْ . وحلاوتُهُ عذابٌ . وبساطُ النَّدامى ترابْ .

ورد : ترتيلٌ هذا أم غناء

رابعة : [مستمرة] .. وقد شربَ الشاربون فغابوا عن الوجود .. وفَنُوا فى حقيقة الموجود .

ابن زياد : [فى غاية التأثر] .. أىْ رابعة . أيتها الأختُ الطَّيِّبَة . لقد ندمت على سوء معاملتى لك طوال هذه الشهور .

رابعة : ذلك بلاءٌ شَغَلَنا عنه الصبرُ عليه .

ابن زياد : سؤالاً واحدًا يارابعة .

رابعة : سل ماشئتَ ياسيدى .

بن زياد : ماذا كنتِ تقولين يارابعة .

رابعة : يا إلهى .

بن زياد : غناء سمعته فخيل إلىَّ أنى أرتفعُ إلى السماء .

رابعة : ذلك حديثٌ بيني وبين سيدى . وليس للعبد أن يتحدث بحديث سادته . فكيف بالسيد الأكبر .

بن زياد : [يتمثل بشعرها الذى سمعها تغنيه] .. غريب على باب الرجاء طريح .

رابعة : [تصرخ باكية] .. واغوثاه .

بن زياد : [فى غاية التأثر] انهضى يا ابنتى . إنى أهبك نَفْسَك .. أنت حرة لوجه الله .. فإن شئت بقيت فى بيتى لالتخدمينا نحن . ولكن لنخدمك أنت .. وإن شئت رحلت .

رابعة : [من خلال دموعها] .. بل أُفَضّل الثانية .

بن زياد : ترحلين عنا .؟!

رابعة : نعم

بن زياد : ولكن إلى أين يا ابنتى .

رابعة : إليه . إليه هو .. وليس إلى سواه .

[ثم تنهض خارجة وهى تقول] .. سيدى .

سيدى خذ بيدى .
أنا فى طريقى إليك ..
أنا فى طريقى إليك .

دروس

ومرت الأيام وتعاقبت السنون وكبر
الصغير . وشيّخَ الكبير . وصارت رابعة
حديث أهل الله فى البصرة ..

عمار : [وقد صار شيخًا ناسكًا]
ولِلّهِ منى جانبٌ لا أضيعُهُ
وَلِلّهْوِ منى والخلاعَةِ جانبُ

تلك هى البصرة منذ أنشأها عتبة بن
غزوان .. لهوٌ بجانبه جِدّ . وعبثٌ إلى جواره
زهد .

حسان : [ضاحكًا] .. وأنت تشربُ من الوِرْدين
ياعمار .

عمار : [بلهجة الاستنكار] .. وأنا فى هذه السنّ
يا ابن أخى ؟

حسان : [غير مقتنع] .. إم .

عمار : كان ذلك قبل أن أصل إلى رابعة .

خالد : ووصلت ياعمار ؟

عمار : إنها صلة قديمة ترجع إلى أول عهدها بالطريق . منذ خرجت من حانتى .. ثم منذ خرجت من بيت ابن زياد وقطعت آخر صلاتها بدنيا الناس .

خالد : ولكنها تقابلهم .

عمار : قلت إنها قطعت صلاتها بدنيا الناس . ولم أقل إنها قطعت صلاتها بالناس .

حسان : فلماذا ترفض هداياهم ؟

عمار : بل رفضت ماهو أكثر .. إنها رفضت محمد بن سليمان الهاشمى .

خالد : هذا عجيب !

عمار : وأى عجب يا ابن أخى .

حسان : ترفض الزواج من محمد بن سليمان الهاشمي .!!

عمار : [يزيده دهشة] .. وأنت تعرف غلة ملكه .؟

حسان : يقال إنها ثمانية آلاف درهم .

عمار : [فى طلعة] .. كل صباح .

خالد : ومع هذا ترفض الزواج منه .

عمار : إنك تنظر إليها بعينك التى تنظر بها إلى الناس .. إنها طراز آخر يابنى .

خالد : وحاجتها من الدنيا ؟

عمار : قليلة . إنها لاتتزوّد إلا إلى الله .

خالد : ولكن ألا تأكل . ألا تشرب .. كيف تعيش ياسيدى . ومن أين ؟

عمار : إنها تأكل السهد وتشرب الدموع .

خالد : [بلهجة التعجب] تأكل السهد وتشرب الدموع !

عمار : هذا مقام لاتفهمه أنت يابنى .. إنى والله أشعر فى حضرتها بريح الجنة .

خالد : [فى إعجاب] .. وغشيت مجلسها ياسيدى ؟

عمار : [وفى صوته لون الضحك] .. مجلسها .. [ثم يقبل عليه قائلا] .. وتسميه مجلسًا يابنى .. صومعة ليس بها غير إبريق . ومنامةٌ هى محرابها ، ومشجب قصبٍ علّقت عليه أكفانَها .. وعليه نايُها القديم . ذلك هو مجلسها .. ومع ذلك فهو قِبْلَةُ القلوب . وندوة أهل الله .

خالد : ياإلهى .. وددتُ لو أخذتنى معك إليها ذات يوم

عمار : أسأل فى ذلك .

خالد : ويحتاج الأمر إلى سؤال .؟

عمار : [فى شىء من غضب] مَهْ يا ابن أخى .. تريد أن تسلك الطريق من نهايته .. الطريق مراتب يابنى .

صالح : [مقبلا عليهم] .. السلام عليكم .

حسان : [يهمس لهم] .. هذا صالح بن عبد الجليل .

الجميع : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

صالح : [وقد لاحظ غضب عمار] .. ماذا بكم ؟

عمار : لاشىء . كنا نتذاكر أخبار رابعة .

صالح : حديث رابعة يملأ البصرة ويملأ كل مكان .. ولكن إذا أردتم أخبارها ثقة فعليكم بابن دينار .

عمار : ابن دينار .

صالح : إنه يُدوِّن أخبار رابعة .. يُمليها على تلميذه أبى الحسن فى جامع البصرة .

خالد : [ينهض قائلا] .. السلام عليكم .

حسان : إلى أين ياخالد .

خالد : إلى جامع البصرة .

المحبة

وفى جامع البصرة كان الناس يتحلّقون حول ابن دينار وهو يروى لهم أخبار رابعة ويمليها على تلميذه أبي الحسن .

ابن دينار : وتعاقبت الأيام .
أبو الحسن : [وهو يكتب وراءه] .. الـ .. أيام .
ابن دينار : ومرت السنون والأعوام .
أبو الحسن : والـ . أعوام .
ابن دينار : وخلعت ثوب الشباب . وخاضت بحار الندم . وسلكت طريق الواصلين . حتى صارت ماهى عليه الآن يافتى .
أبو الحسن : ماهى .. عليه .. الآن .
ابن دينار : اكتب يافتى .

ودخل عليها لص ذات ليلة وهى ساجدة .. فلم يتبينها اللصُّ فى الظلام . ولما لم يجد شيئًا يسرقه هَمَّ بالخروج .

وفى هذه اللحظة انتهت رابعة من صلاتها ورفعت صوتها بالسلام

* * *

بعة : [وهى تختم صلاتها] .. السلام عليكم ورحمة الله . السلام عليكم ورحمة الله .

للص : [فى غاية الرعب وقد فوجئ بها] .. إه .. بـ بسم الله الرحمن الرحيم .

إبعة : [فى لطف وسماحة] .. لا . لاتَخَفْ يا أخى .

اللص : و .. ومن أنت ؟

ابعة : السلام عليك أولا .

للص : أين كنتِ بحق الله .

إبعة : [فى عتاب رقيق] .. ألا تردّ السلام يا أخى ؟

للص : [فى ذهول] تنادينى بأخيك . وتلقينْ إلىَّ بالسلام . وقد دخلتُ بيتك سارقًا .!!

زابعة : ولكنك لم تسرق شيئا .

اللص : لأننى لم أجد مايُسرق .

زابعة : يخجلنى أن تقصدنى فلا تجد فى بيتى شيئًا .

اللص : [مأخوذًا] .. أنتِ .. أنتِ .

رابعة : أختك يا أخى .

اللص : [وهو يلهث] .. أنت .. أنت .

رابعة : [تقاطعه فى لطف] قل لى أولا : لماذا تمدّ يدك إلى عبد مثلك ؟

اللص : إنها الحاجة .

رابعة : ولماذا لم تقصد بها مولاك .

اللص : [فى سخرية وألم] .. مولاى !

رابعة : هل وقفت على بابه ؟

اللص : بل هربت منه .

رابعة : وكيف تهرب منه وهو معك يامسكين .

اللص : [وقد أدرك ماتعنيه رابعة] .. أنتِ .. عمن تتكلمين ياسيدتى .؟

رابعة : أتكلم عنه .. هو .. السيد الأكبر الذى لايُغْلَق بابه .. ولايضيق رحابه .

اللص : [يبكى] .

رابعة : قم يامسكين وتوضأ من هذا الإبريق ، واتّجِهْ إلى الغنى الذى لاغنىّ سواه .

اللص : أفعل إن شاء الله .. ولكن . ألاسراج نستضىء به .؟

رابعة : وهل نحن فى ظلام .

اللص : إننى لا أراك ياسيدتى .

رابعة : لأنك تراه .

[ثم بصوت يتهدج] .. وحتى لانشغل العينَ بشيء سواه .

اللص : [يهمس] .. لا إله إلاّ الله .

رابعة : إلهى . وسيدى . وحبيبى :

هذا عبد قد أتى بابى ولم يجد شيئا .. وقد دَلَّلْتُه على بابك .. ووقفتُه برحابك .. وجعلتُه يلوذُ بجنابك . فلا تَحْرِمْه من فضلك وثوابك ياغنى .. ياغنى .. ياغنى .

* * *

ابن دينار : [يكمل قصتها مع اللص] .. واستغرقت رابعة فى صلاتها .. واستغرق اللص فى صلاته .. وانشطر الليل وهما غارقان فى صلاتهما ودعائهما .

فلما كان الفجر أفاقت رابعة من استغراقها . فوجدت اللص ساجدًا وهو يبكى ويقول :

إذا ما قال لى ربى

أما استحيْتَ تعصينى

فـما قـولى لـه لمـا
يـعُـاتبـنى ويُـقْـصيـنى

رابعة : [تقبل على اللص قائلة فى عطف] .. هَوِّنْ عليك ياأخى .

اللص : [فى رعب وقد فوجئ بصوتها وهو مستغرق] . أهْ . مَنْ ؟ من ؟

رابعة : [تعاتبه فى رفق] .. أهكذا تنسى أختك سريعًا

اللص : أين . أين أنا ؟

رابعة : أنت حيث أرادك الله أن تكون .

اللص : [وقد تذكر كل شىء] .. آ . لاتؤاخذينى . أنت صاحبة الدار . ولكن هل قضينا الليلة معًا ؟

رابعة : بل قضيناها معه .

اللص : وا حَرَّ قلباه .

رابعة : كيف كانت ليلتك يا أخى ؟

اللص : [وصوته يتهدج] .. وقفتُ على بابه بِذُلِّى وفقرى .. فقبل عذرى .. وجَبر كسرى [ويبكي] .

رابعة : ولهذا تبكى .؟

اللص : إننى أصلى بدموعى ..

لقد تحرَّرَتْ روحى ..
لقد وجدتُ نفسى أخيرًا .
[ثم ينهض صائحًا] .. كلا . أنالست عبدًا .. أنا حرٌ طليق .. لقد عرفت طريقى .
[ثم يخرج وهو يصيح] .. أنا فى طريقى إليه ..
أنا فى طريقى إليه ..

رابعة : [وهى تتجه إلى السماء] .. إلٰهى . هذا عبد وقف ببابك ساعةً فقبلتَه . وأنا مذ عرفتك بين يديك .. أتراك قبلتنى [وتبكى] .

* * *

ابن دينار : [يكمل قصتها مع اللص] . وخرج اللص هائمًا على وجهه .

أبو الحسن : [يضع القلم ويقبل على شيخه قائلا] .. ياعجبًا ياسيدى .

ابن دينار : إنها رابعة يابنى ..
إنك لم تدركها فى صدر شبابها . لقد كانت شيئًا يدير الرءوس .

أبو الحسن : ياعجبًا للخطيئة تُورِثُ الْـ .
[ثم يقطع كلمته ويقول متحرزًا] .. أستغفرُ الله على أىّ حال ،

سفيان : [مقبلا عليهم] . السلام عليكم .

أبو الحسن : [يهمس لشيخه ابن دينار] .. هذا شيخنا سفيان .

ابن دينار : وعليكم السلام ورحمة الله .. من أين ياسفيان .

سفيان : [فى ألم] .. من عندها يا ابن دينار .

ابن دينار : وكيف حالها اليوم ؟

سفيان : كما كانت بالأمس . شيخوخةٌ تعانيها . وساعات تقضيها .

ابن دينار : لاحول ولا قوة إلا بالله .

[ثم يقبل على تلميذه قائلًا] .. النهاية . اكتب يافتى .

سفيان : ماذا تكتبون .؟

ابن زياد : وهل نكتبُ إلا أخبارَها .

سفيان : أخبارها ..؟!

وهل تحتاج أخبار رابعة إلى كتابة يا ابن دينار ؟

ابن دينار : إنما نكتبها للزمان يا أخى .

سفيان : إذا أردتم مزيدًا من أخبار رابعة فعليكم بخادمها عبدة .

ابن دينار : خادمها عبدة .

لقد أذكرتنى ياسفيان ..

[ثم لتلميذه] .. اكتبْ .. اكتبْ يا أبا الحسن .
[ثم بلهجة الإملاء] .. حدثنى جعفر بن سليمان .. قال : حدثنى العباس بن الوليد .. قال : قالت خادمها عبدة .

* * *

عبدة : كنت أقوم على خدمة سيدتى رابعة منذ أعتقت .. ومازلت فى خدمتها إلى اليوم . فبينا أنا نائمة ذات ليلة خُيل إلىَّ أنى رأيت نورًا ملأ مابين السماء والأرض .. فقمتُ من نومى فزعةً فسمعتها تبكى فى كبد الليل . حتى خُيل إلى أن كل شىء يبكى معها . ثم سمعتها تقول :

رابعة : إلهى أنارت النجوم .
ونامت العيون ..
وغَلَّقَت الملوكُ أبوابها .
وخلا كلُّ حبيب بحبيبه
وهذا مقامى بين يديك .
وعزتك يارب ماعبدتُك لجنتك . بل لمحبتك . وليس من أجلها قطعت عمرى فى الوصول إليك .. إنه الحب .

الحب .. والشوق .
وكيف حبيك وشوقي إليك .

[ثم تبكي وتغني]

عرفتُ الهوى مُذْ عرفتُ هواكا[1]
وأغلقتُ قلبي عَمَّنْ عداكا
وقمتُ أناجيك يا مَنْ ترى
خفايا القلوب ولسنا نراكا

* * *

(أحبك حبين : حُبَّ الهوى[2]
وحبًّا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حبُّ الهوى
فشُغْلِي بذكرك عَمَّنْ سِوَاكا
وأما الذي أنتَ أهلٌ له
فَكَشْفُكَ لي الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاك لي

(١) موسيقى وألحان رياض السنباطي . وغناء : أم كلثوم .
(٢) الأبيات التي بين الأقواس من شعر السيدة رابعة .

ولكنْ لك الحمد فى ذا وذاكا)

* * *

أحبُّك حبين : حبَّ الهوى
وحبًّا لأنك أهل لذاكا
وأشتاقُ شوقَيْن : شوقَ النَّوى
وشوقًا لِقُربِ الخُطَى مِنْ حِماكا
فأما الذى هو شَوْقُ النَّوى
فَمَسْرَى الدموع لِطولِ نواكا
وأما اشتياقى لِقُرْبِ الحِمى
فنارُ حياة خَبَتْ فى ضياكا
ولستُ على الشَّجْو أشكوى الهوى
رَضِيتُ بما شئتَ لِى فى هواكا .

نهاية وبداية

وفى الكوخ الذى أصبح ندوة أهل الله .
وعلى المنامة التى هى محراب رقدت رابعة - أو مابقى منها - تودع آخر ساعاتها من هذه الحياة الدنيا . وتستقبل أول ساعاتها من الآخرة .

خلقٌ كثير من العلماء والأمراء والسابلة وقوف على بابها ينتظرون قضاء الله .

* * *

عمار : [وقد صار شيخًا أرعشت صوته الأيام] .. لاحول ولا قوة إلا بالله .

ابن زياد : [بصوت مختنق] .. ألا نستطيع أن نلقى عليها نظرة ياسفيان .

سفيان : أخشى ألا يكون ذلك مستطاعًا يا ابن زياد .

ابن زياد : [وفى صوته لون البكاء] .. ولكنى .. كنت ..

أريد أن .. تسامحنى على مافرط منى ياسفيان .

سفيان : غفر الله لك يا ابن زياد .. ألا تزال تذكر هذه الأيام .؟

ابن زياد : وأندم عليها ياسفيان .

سفيان : [وقد رأى عبدة مقبلة] .. هذه عبدة .

ابن زياد : [مقبلا عليها] . عبدة .

عمار : تعالى عبدة .. كيف حالها الآن .

عبدة : [تبكى] ..

ابن زياد : [فى غاية الضيق والألم] .. ألا تجيبين سؤاله بدلاً من هذا البكاء ياعبدة .

سفيان : [فى حزن عميق] .. بل أجابت بهذه الدموع يا ابن زياد . انطلقى عبدة .. انطلقى فلعلها فى حاجة إليك الآن .

عمار : لاحول ولا قوة إلا بالله ..

* * *

عبدة : [داخلة عليها تقول بصوت مختنق] .. سيدتى .

رابعة : [بصوت يرتعش من الشيخوخة والمرض] .. عجوز سُحلتْ مريرتُها .. وقد أوفتْ على الثمانين . ياحبيبى .

لقد أنفقتها ثمانين عامًا وأنا أسعي إليك .. ومازلت
أسعى ياحبيبى .. فمتى أصل ياحبيبى .
[وفجأة ينبعث فى الجوّ صوت الناى ليعيد لرابعة
أيامها الأولىٰ .. ويصل صوته إلى رابعة وحدها
يسمعه أحد سواها] .

رابعة : [فى دهشة وبصوت متقطع] .. ياإلهى . هذا هو
الناى .. الناى .

عبدة : سيدتى . إن خلقًا كثيرًا من العلماء والأمراء
والسابلة وقوف على بابك يبكون .

رابعة : [بصوت ضعيف] .. دعى الخلق للخالق .
[ثم فى دهشة تشير إلى صوت الناى الذى تسمعه
هى] .. ولكن . اسمعى . عبدة .

عبدة : [التى لاتسمع شيئا] .. أسمع ماذا ياسيدتى

رابعة : [فى دهشة] .. ألا تسمعين ياعبدة ؟

عبدة : أسمع ماذا ؟

رابعة : [تشير إلى صوت الناى] .. هذا .

عبدة : أى شىء تعنين ياسيدتى

رابعة : ألست تسمعين الناى ياعبدة .

عبدة : أنا لا أسمع شيئًا .
[ثم تشهق وهى تكاد تصعق من الدهش

هيه . يا إلهى .

رابعة : عبدة .

عبدة : [فى دهشتها تصيح] .. إن وجهك تعود إليه نضرة الشباب !

[والناى مستمر تسمعه رابعة وحدها]

رابعة : ذلك هو الناى .. وتلك علاماتها .. عبدة .

عبدة : [وصوتها مختنق] .. سيدتى .

رابعة : أدخلى سفيان يحضر هذه الساعة .

[ثم تنخرط فى مناجاة عميقة وقد خرجت عبدة] ..

ياحبيبى ..

هأنذى صاعدة إليك .

ولكنى خائفة .

ليس من نارك . ولكن من هجرك ياحبيبى

[الناى مستمر]

سفيان : [داخلاً] .. سلام أهل الله .

رابعة : سفيان .. تعال يرحمك الله .. أخبرنى .. ألا تسمع صوت الناى .

سفيان : [لايسمع شيئا فهى وحدها التى تسمعه].. أى ناى ياأم الخير ؟

رابعة : [مشيرة إلى الصوت المستمر] .. هذا .. ألا تسمع ياسفيان ؟

سفيان : وَيْكِ رابعة . أنا لا أسمع شيئًا .

رابعة : [بصوت مختنق بالبكاء] .. حتى أنت يا أخى .

سفيان : لا عليك يا أختاه . إنك اليوم تسمعين مالا نسمع .. وترين مالانرى

رابعة : [والناى مستمر] .

عندما تغمض عيناى .

عندما ترتمى يداى

عندما أنطلق من سجن هذا الجسد

عندما أتحرَّر من ترابيتى ..

أطير إليك ياحبيبى على أنغام هذا الناى

وأَزُفُّ إليك على ألحانه .

يا أنت

يا أنا

يا هو

ياحبيـ .. ياحبيبى [وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة]

عبدة : [تنفجر صارخة وهى ترتمى عليها باكية] .. سيدتى . سيدتى .

سفيان : [فى خشوع] .. كل نفس ذائقة الموت .

عبدة : [تبكى] .

سفيان : إنا لله وإنا إليه راجعون .

[وينبعث صوت الدفوف]

عبدة : [تشهق من الدهشة وتصيح] .. هيه . سفيان .

سفيان : ماذا .؟

عبدة : ياربى .. إنها هى .. هى .. هى والله .

سفيان : هى مَنْ ياعبدة

عبدة : مولاتى .

سفيان : رابعة ؟

عبدة : ألا تسمعُ ياسفيان .. ألا تراها مثلى .

سفيان : إن مولاتك جثة هامدة أمامك ياعبدة .

عبدة : لا . لا . إنى أراها الآن فى ثوب الصِّبا . إن وجهها يضىء .. إنها تبتسم .

سفيان : [فى غاية الألم] عبدة .

عبدة : إنهم يزفونها فى السماء .

عروس فى ثوب العرس . وراءها حوريات من السماء . بأيديهن المزاهر والدفوف .

[ثم تنادى بأعلى صوتها] سيدتى ... سيدتى .

[ترتفع دقات الدفوف فتطغى على صياحها]

* * *

الحوريات : أَوْقدوا الشموسْ .. أُنْقُروا الدُّفوفْ[1]
موكبُ العروسْ .. فى السما يطوف
والمنى .. قطوف
انقروا الدفوف

* * *

رابعة : الرِّضا والنُّورْ .. والصبايا الحُورْ
والهوى يدور
آنَ للغريبْ .. أن يرى حماه
يومُهُ القريبْ .. شاطىء الحياه
والمُنى قطوف
فى السما تَطوفْ
انقروا الدفوف

* * *

الحوريات : أوْقدوا الشموس

* * *

رابعة : ياحبيبَ الرُّوح .. تائهٌ مجروحْ
كلُّه .. جروحْ

---

(١) الموسيقى واللحن : محمد الموجى .. والغناء : أم كلثوم .

لائذٌ بالبابْ .. شوقُهُ دعاهْ
والرضا رِحابْ .. يسمل العُفاهْ
والمنى قطوف
فى السما تطوف
انقروا الدفوف

الحوريات : أوقدوا الشموس .

* * *

رابعة : طافَ بالسلامْ .. طائفُ السلامْ
يُوقِظُ النيام
عهدُهُ الوثيق .. واحةُ النجاهْ
أوَّلُ الطريقْ .. هو مُنْتَهاهْ ..
والمُنى قطوف
فى السما تطوف
انقروا الدفوف

* * *

الحوريات : أوقدوا الشموس .. انقروا الدفوف
موكب العروس .. فى السما يطوف
والمنى قطوف
فى السما تطوف
انقروا الدفوف

فهرس

صفحة

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٤٢٦٨
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٣٩١-٨	ISBN

١ / ٨٥ / ١١٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



